السنة السادسة العدد ٨ ١٥ نيسان سنة ١٩٠٣

المشرق

قيامة المسيح

للاب يوسف غرد اليسوعي مدرّس اللاهوت في كليّة القديس يوسف

في هذه الأيام يتجلّى العالم المسيحيّ في افخر اثوابهِ وتهتزّ معاطف قلوب المؤمنين بطوالع موسم يطوّق نحورهم بقلائد العزّ والبهجة. كيف لا ويحتفل النصارى بذكر اعظم حادث جرى في كرور الادهار وسُطّر في بطون تواريخ الاعصار نريد قيامة السيّد المسيح لذكرهِ المجد وانتصارهُ على قوّات الجحيم وسلطة الموت

قلنا انّ هذا حادث تاريخي ولا بدع لانّ يسوع الناصريّ ليس كاحد ابطال الاجيال الغابرة او آلهة اساطير الاوّلين الذين شاع ذكرهم بين قدماء اليونان او براهمة الهند فاعارهم الشعراء من الصفات والسجايا ما سوّلتهُ لهم مخيَّلتهم فنشروا بين الناس ما اختلقوهُ وزاد العامّة على ذلك من الخرافات والترّهات ما لا يقبلهُ عقل عاقل. لا لعمري بل انّ يسوع المسيح رجلٌ معروف لا شكّ في وجودهِ كما لا ريب في وجود الاسكندر الفتّاح او نابليون الكبير. هو رجلٌ محسوس ذو لحم ودم كبقيّة البشر لهُ تاريخ ثابت وترجمة حياة مقرّرة. لهُ نسبٌ معلوم يرتقي اصلهُ الى داود بسلسلة متواصلة. قد دُوّن عهد مولدهِ في اكتتاب اجراهُ احد ولاة الرومانيين في قرية تُدعى بيت لحم. وقُتل بموجب حكم ارسل بيلاطوس البنطيّ صورتهُ الى طيباريوس قيصر. وكان هذا القرار مودعاً في دار الصكوك في رومية على عهد ترتليانوس المعلّم المتوفى سنة ٢٤٥ للمسيح

وقد اثبت الامر ذاك الكاتب الشهير في تآليفه . امَّا حياة المسيح وبشارتهُ فمَا ظهر على رأس الملأ لم يشهد بها فقط بعض التلامـذة الامين بل جموع كثيرة وشعب لا يُحصى عديدهُ . وكان يتأثرهُ جماهير مجمهرة منهم اصحاب يرتاحون الى كلامهِ ويشيدون بذكرهِ ومنهم اعداء الدَّاء يترصَّدون كلَّ حركاتهِ ويتجسَّسون كلامهُ لعلَّهم يجدون في اعمالهِ او اقوالهِ مغمزًا يمكنهم من القبض عليهِ ليذيقوهُ الموت الذُّعاف وهم لم يرعووا عن غيّهم ويعدلوا عن سوء نيَّتهم ريثما فازوا بالمراد فقتلوا البارَّ بيد الحاكم الروماني واودعوهُ اللحد وختموا على قبرهِ ظافرين . تلك امور شهد على صحَّتها كتب اليهود وتواريخ الوثنيين فضلًا عن الاناجيل المقدَّسة

لكنَّ النصارى مع اقرارهم بهذه الحقائق التاريخيَّة يعتقدون بامر آخر ليس هو دون ذلك شأنًا وهم يبذلون حياتهم بطيب الخاطر لاثبات صحَّتهِ . اعني بهِ لاهوت هذا المصلوب وكونهُ ابنًا لله . ولهم في اقامة البيّنة على ذلك شواهد صادقة وادلَّة ناطقة يسطع في جملتها برهان لامع يفوقها كلَّها فوق الشمس على الكواكب وهو وحدهُ يُغني عنها جميعًا ألا وهو قيامة السيّد المسيح فانَّها ركن تستند اليه النصرانيَّة وان قوي انسان على دحضهِ اسقطها وابادها معهُ . امَّا اذا ثبت هذا البرهان فيثبت معهُ الدين النصرانيُّ وهو في حرز حريز وحصن منيع « يعزُّ على من رامهُ ويطول » وقد اقرَّ بذلك القديس بولس الرسول في رسالتهِ الى اهل قورنتس الاولى (١٤:١٥) حيث يقول : « فان كان المسيح لم يَقُمْ فكرازتنا اذن باطلة وايمانكم ايضًا باطلٌ » . وقد ادرك الحواريُّون ما في هذا الامر من الخطر فانَّهم لمَّا حاولوا ان يقيموا خلفًا ليهوذا الاسخريوطيّ ارادوا ان يكون ممَّن يشهد معهم بقيامة الربّ من الاموات (اعمال ٢٢:١) . وكذلك ادرك اعداء المخلّص انَّ قيامتهُ تبطل كلَّ مكايدهم ومن ثم طلبوا الى بيلاطوس ان يُحرَس القبر لئلَّا يُسرق جسم يسوع فيشيع بين الشعب خبر قيامتهِ (كما سبق واخبر بذلك) فتكون الضلالة الاخيرة شرًّا من الاولى (متى ٦٥:٢٧)

فترى من ثمَّ ما وراء هذه الحقيقة من عظم الشأن . ولذلك قد عوَّلنا في هذه المقالة ان نوضح للقرَّاء هذه القضيَّة فنبيّن قوَّتها ومَنَعتها بازاء كلّ غارات الهرطقات . ونقسم هذه النبذة الى قسمين فنثبت في القسم الاوَّل انَّ قيامة المسيح مع ما يلوح في وقوعها

لأوّل وهلة من الغرابة وعدم الامكان لَحادثةٌ نيّرة أكيدة لا طاقة الى جحودها. وفي القسم الثاني نبرهن انَّ هذه القيامة هي اقوى دليل على لاهوت المسيح

١

كانت وفاة المسيح نحو الساعة التاسعة من النهار اي الثالثة بعد الظهر من يوم جمعة الفصح. ولم يمرّ على موته ثلاث ساعات حتى رخّص الوالي ليوسف الراميّ بان ينزل جسمهُ من على الصليب ويدفنهُ فتمّ الامر بمحضر من بعض النساء التقيّات ومساعدة نيقوديموس ويوحنّا الحبيب

تلك امور جرت بعلم الرومان واليهود معًا ولم يلبث القبر ان دُحرِج على بابهِ حجر كبير وخُتم بخاتم الولاية وجُعل عندهُ حرّاس لئلّا ينتهك حرمتهُ احد فاطمأنَّ اليهود غير مكترثين لما سمعوهُ من فم « ذلك المُضلّ » انهُ يقوم من الاموات

ولكن يا للعجب العجاب بينما كانت الامور على هذه الحال اذ شاع في اورشليم بعد يومين انَّ الجسم توارى من القبر. وانَّ الميت قد قام بملء الحياة والمجد وانهُ ظهر لا مرّة واحدة بل مرارًا متعدّدة وفي امكنة شتّى وفي ظروف تختلف ايَّ اختلاف. وانَّ الذين نظروهُ مسّوا جسمهُ وتكلّموا معهُ وآكلوهُ. وكلُّ ذلك يشهد بهِ ليس واحد او اثنان بل نيّف وخمسمائة من الشهود العيان الأثبات الذين عاينوهُ مرّة اخيرة صاعدًا في الجوّ بكل أُبّهة وجلال الى ان توارى عن ابصارهم تمامًا

نعم ان الشهود الذين يعلنون بهذه الامور الغريبة هم من تلامذة المصلوب لانَّ اليهود الذين قتلوهُ والجنود الذين صانوا قبرهُ لم يعاينوهُ البتّة. وهذا ممّا يقرّ بهِ صريحًا بطرس الصفا وهو مع ذلك لا يتردّد في أدا شهادتهِ حيث يقول (اعمال ١٠ : ٤٠ — ٤٣): « هذا (يسوع الناصريّ) اقامهُ الله في اليوم الثالث واعطاه ان يظهر علانيةً لا للشعب كلّهِ ولكن لشهود اصطفاهم الله من قبلُ اي لنا نحن الذين أكلنا وشربنا معهُ بعد قيامتهِ من بين الاموات وقد اوصانا ان نكرز للشعب ونشهد بانهُ هو الذي عيّنهُ الله ديّانًا للاحياء والاموات »

فهذه الشهادة الصريحة حادثٌ واقعيٌّ وردت في التاريخ ولا يمكن انكارها. ولكن يستطيع اهل البحث وارباب العلم ان يسبروها بمعيار الانتقاد ويقيسوها بمقياس العقل ليروا ان كانت تتمّ فيها شروط الشواهد التاريخيّة. اعني اولًا ان كان الشهود محقّين

صادقين ليسوا من الماكرين المخرقين. وثانياً ان كانوا من الشهود الأثبات الذين يوثق بشهادتهم لم يرووا ما رووا جهلاً دون تروٍ. متابعين لخيلتهم واضغاث احلامهم. وخلاصة القول لا بدَّ لنا قبل الصادقة على شهادتهم والرضى بقولهم ان نتبيَّن انهم لم يخدَعوا ولم يُخدَعوا. فاذا تقرَّر هذان الشرطان لا مناص من قبول شهادتهم وثبت ممَّا انَّ المسيح إلهٌ

١ صدق الرُسل في شهادتهم عن قيامة المسيح

امَّا كون الرُسل صادقين محقّين ليسوا بمبارين مكّارين فذلك ممَّا يلوح من نفس رواياتهم فانَّ من يمعن النظر في ما اوردتهُ الاناجيل المقدَّسة يَرَ الحقَّ يتدفَّق من كلامهم. فانَّك لا تشعر في شهادتهم بشيء من التصنُّع ولا طنطنة الألفاظ ولا تزويق الكلام وترقيشهِ ممَّا يدلُّ على بعض اختلاق لا بل في كل ما يروي هؤلاء الأمينون سمةٌ واضحة من السذاجة تقضي بالعجب وتمثّل الحقيقة على صورة من الصدق واليقين لا ينكرها الَّا من كابر الحقَّ وعاندهُ. وقد اقرَّ العرب بذلك فدعوا تلامذة المسيح بالحواريين قالوا: «انَّما دُعوا بهذا الاسم لصفاء نيَّتهم وصدق سريرتهم»

ولكن هَبْ ان الرُسل اتفقوا على تشييع خبر قيامة المسيح وهو كاذب لا نصيب لهُ من الصحة تُرى هل امكنهم ان يقوموا بقصَّة فريَّة مثل هذه فيجيزوها على عقول الناس ويدافعوا عنها بازاء كلّ اهل اورشليم بل بازاء اعداء سيّدهم الذين ما كانوا ليسكتوا عن الافك والكَين او بالاحرى كانوا أتّهموا اصحاب الزور والبهتان الحجر وافحموهم بالدليل

قال الاب مُنسبراي الخطيب الشهير: «لو كان خبر قيامة المسيح من الروايات الفريَّة لاستشففنا الكذب من ورائها وظهر اختراع البشر لا محالة. قُل لي ناشدتك الله كيف امكن قوماً من الرعاع الاميين ان يتَّفقوا بغتةً على إشاعة معجزة ليس لها شبيه في تواريخ الأوَّلين فيرووها امام الوفي وربوات من السامعين دون ان تُستروَح منها رائحة الكذب. أَمَا كان ظهر من اقوال الرسل عدَّة دلائل تشهد على خداعهم كالتناقض في الروايات المختلفة وكالاقاويل الخرافيَّة التي تُدحض لاوَّل وهلة وكالزخارف والتنميقات والمبالغات التي هي من اقوى أعلام الخداع واوضح آيات البهتان. على انَّ الامر على عكس ذلك ترى تلاميذ المسيح يخبرون بخبر لم يطرق على بال بشر وهم يروونهُ بابسط

كلام كما عاينوهُ دون ان يلوح من قولهم او حركاتهم او تصرّفهم شيء. يدلُّ على اختراع او تلفيق كالقلق او الارتعاج ولا شيء من الاهواء النفسانيّة كالخوف او الرجاء. فليت شعري اي كاذب مموّه يستطيع عملًا كهذا. ومن اعتبر رواية الرسل بعين خالية من الغرض لا يسعهُ الّا ان يقول لولا انّ قيامة المسيح امرٌ لا ريب فيه لما امكن هؤلاء ان يشهدوا بشهادة الحقّ ولظهر صريحًا كذبهم على رؤوس الملإ. فانّ سذاجة روايتهم لمن انطق الدلائل واصدق الشواهد على انّهم شهود ثقة لم يريدوا الغشّ ولم يحاولوا الخداع »

هذا ولنا على صدق الرسل وصحّة شهادتهم على قيامة الربّ حجّة اخرى ابهر آيةً واوضح دلالةً. نريد قوّتهم وثباتهم في تأييد قولهم. نعم انّ الدجّالين ربّما تجاوزوا كلّ حدود الخبث والدعارة ولكن اذا اقتضى الامر ان يبذلوا في سبيل الخداع مهجتهم ويتحمّلوا الشتائم والنكال وانواع الموت لاثبات الكذب تراهم في الغالب ينكصون على الأعقاب ويبوءُون باثمهم ليتملّصوا من الكراهية والمحن. واذا ما ثبت منهم البعض على تلك البلايا (وقليل ما هم) انّما يثبتون ذلك امّا خوفًا من عذابٍ اعظم او املًا بمطلوب مرغوب

وليس الامر كذلك في الرسل تلامذة المسيح فانهم جميعًا خاطروا بانفسهم وبذلوا الارواح وقاسوا الشدائد والمحن وذاقوا الموت الاحمر بطيب الخاطر دون ان ينكثوا بشهادتهم او ينقضوا حرفًا ممّا سبق لهم قراره. حتى جاز لنا القول مع الفيلسوف پسكال: « انّي لاصدّق شهادة رجال يعرّضون انفسهم للهلكة والموت إثباتًا لقولهم » وهذا ما اقرّ بهِ الملاحدة فضلًا عن المؤمنين كستروس (Strauss) مثلًا والجاحد رينان وغيرهما كثيرين فلم يروا وجهًا لانكار صدق الرسل. وكيف ناشدتك الله ينكرون امرًا اضوأ من الشمس. لانّ تلامذة المسيح كانوا تفرّقوا وانقطع سلك نظامهم منذ موت سيّدهم وقد استولى عليهم الخوف والخجل حتى لم يجسروا ان يخرجوا من عليّتهم « خوفًا من اليهود » وهاك تراهم بعد زمن قليل ينتصبون امام القوم المزدحمين حولهم فيبشّرون بقيامة المصلوب وذلك بازاء اعدائهِ الذين امروا بصلبهِ قبل خمسين يومًا ويبكتونهم على فعلهم لا يُبالون بالوعد والوعيد ويثبتون صحّة قولهم بالمعجزات الباهرة

ولما تصدّى لهم الكهنة والشيوخ ورؤساء الشعب وحبسوا اثنين منهم اعني بطرس ويوحنا واقاموهما في وسط مجمعهم مشدّدين عليهما النكير مع الامر بالّا يبشروا بهذا الاسم يجيب الرسولان بجرأة (اعمال ٤: ١٩): «احكموا انتم ما العدلُ امام الله ان نسمع لكم ام نسمع لله فانّا لا نقدر ان لا نتكلّم بما عاينّا وسمعنا» فتهدّدوهما وصرفوهما

الّا انّ الرسل لم يكفّوا عن التبشير بل زادوا غيرةً ونشاطاً في كرازتهم بقيامة المخلّص من بين الاموات. فعاد اليهود وقبضوا ليس فقط على بطرس ويوحنّا بل على الاثني عشر بأسرهم والقوهم في السجن ثم جلدوهم بالسياط وتهدّدوهم بما هو اعظم واشدّ لو ثبتوا على قولهم. فلم يفعل كلام اليهود فيهم. وكان جوابهم الوحيد «انّ الله احقّ من الناس ان يُطاع» بل «خرجوا من وجه المحفل فرحين بأنّهم حُسبوا مستاهلين ان يُهانوا لاجل اسم يسوع» (اعمال ٥: ٤١)

فيا ليت شعري كيف تغيّرت قلوب هؤلاء التلامذة؟ انّى لهم هذه القوّة وهذا الثبات العجيب بازاء العذابات والموت لولا أنّهم علموا العلم التامّ بحقيقة قيامة الرب وتحققوا صحّة هذا الحادث الغريب الذي شهدوا به

نعم انّنا لا نجهل نحن المسيحيين انّ هذه القوّة التي ظهرت في الحواريين انّما أوتوها من الله كما سبق السيّد المسيح ووعدهم بذلك حيث قال (اعمال ١: ٨): «ستنالون قوّة الروح القدس الذي يحلّ عليكم فتكونون لي شهودًا في اورشليم وجميع اليهوديّة وفي السامرة والى اقصى الارض» لكنّ القوّة العلويّة لم يُمنحوها الّا بعد ان استثبتوا خبر قيامة الرب وعرفوا صحّتها. ولولا قوّة الحقّ على نفوسهم لما امكن الله ان يؤيّدهم بسلطانه لينصروا الباطل والزور بل كانوا بعد موت سيّدهم ايسوا منهُ فعادوا الى بيوتهم لينتظروا مسيحاً آخر يردّ الى اسرائيل ملكهُ المفقود ومجدهُ الدارس: وهذا ما اخذ بفعله تلميذا عمواص اللذان خرجا من اورشليم كئيبين آيسين فتراءى لهما الربّ وثبّت ايمانهما فعادا الى لفيف الاخوة

وكأنّي اسمع هنا اصوات المعترضين ليبيّنوا ببعض الدلائل انّ رسل المسيح خدعوا العالم بنشر خبر قيامته

يقولون (اوّلاً) انّ الرسل كانوا يحبّون معلّمهم محبّة فائقة الحدود فلم يرضوا بان يُدفن مجدهُ معهُ ولذلك اشاعوا خبر قيامته الموهوم

نقول انّ هذا الاعتراض لا يقبلهُ العقل لانّ الرُسل كانوا من صعاليك القوم لا نفوذ لهم ولا جاه ولا عام البتّة فكيف يقنعون بصحّة خبر كهذا ائمّة الشعب والرؤساء والكهنة. ثم كيف يعرضون على الناس السجود لرجل قتلهُ اعداؤهُ وسمّروهُ على خشبة العار فيجلبونهم الى ان يعبدوا طوعاً «مصلوباً هو شكٌّ لليهود وجهالة للامم» كما يقول بولس الرسول (١ كور ١: ٢٣). وهل كان يمكن ان ينتظر الرسل لو فعلوا ذلك غير الاهانات والعذابات والوان الموت كما جرى لهم رغماً عن شهادتهم الصادقة

يقولون (ثانياً) انّ الرسل كانوا سمعوا من فم سيّدهم ذكر الملكوت فلمّا مات معلّمهم لم يرضوا بان تخيب آمالهم فبشّروا بقيامته ليمكنهم ان يعيدوا ملك اسرائيل ويكونوا هم من اركان هذه الدولة المجدَّدة

نجيب ان الرسل لو ارادوا ان يجدّدوا ملك بني اسرائيل باشاعة خبر قيامة المسيح لكانوا طلبوا ملكاً زمنيًا مع الغنى والشرف والسلطان. ولا نراهم بعد قيامة المسيح يفكرون في شيء من ذلك كما كانوا يفعلون قبل قيامته. وغاية ما يريدون ان يقيموا مملكة روحيّة مبنيّة على الفقر والزهد والتواضع والصبر على الآلام والاوجاع ولا يتّخذون لنوال غايتهم شيئاً من الوسائل البشريّة وانّما اتكالهم عليه تعالى فكيف يا تُرى يُنجح الله مقاصدهم اذا ما كان مسعاهم مبنيًا على الافك والخديعة

ثم نرى قول الرسل مؤيّدًا بالمعجزات والعجائب فقل لي رعاك الله هل يستطيع تعالى ان يثبت اكاذيب المكّارين بكراماته وخوارقه. وليست هذه المعجزات اموراً خفيّة بل يصنعها التلاميذ على رؤوس الاشهاد وذلك باسم يسوع الناصري المصلوب. كما فعل بطرس ويوحنّا بذلك الاعرج الكسيح الذي لقياهُ على باب الهيكل فشفياهُ بغتةً اثباتاً لقيامة المسيح واعلنا بالامر امام الشعب باسره ثم امام مجلس الشيوخ وعظماء الاحبار قائلاً: «يا رؤساء الشعب وشيوخ اسرائيل ان كنّا نُفحص اليوم عن إحساننا الى رجل سقيم بماذا برئ فليكن معلوماً عند جميعكم وجميع شعب اسرائيل انهُ باسم يسوع المسيح الناصري الذي صلبتموهُ انتم والذي اقامهُ الله من بين الاموات بذاك وقف هذا امامكم متعافيًا» (راجع سفر الاعمال ف ٣ ثمّ

ف ٤ : ٨) . فان كان الله ايد قول الرسولين باعجوبة كهذه فذلك دليل واضح على صحة قيامة المسيح التي لاجلها اجترحا هذه المعجزة الباهرة لانهُ من المستحيل ان يسمح الله بعمل المعجزات اثباتاً للضلال وتأييداً للمكر . وقد اقرَّ بذلك الخمسة الآلاف من اليهود الذين اذعنوا للحقّ وطلبوا من الرسل ان يعمدوهم باسم المسيح .

على انَّ لليهود اعتراض (ثالث) يلتجئون اليهِ لنكران قيامة المسيح قالوا: «انَّ تلامذة يسوع اتوا خفيةً وسرقوا جثتهُ من القبر والحرَّاس نيام» وهو قول شاع عند اليهود منذ أيام الرسل كما دوَّن ذلك القديس متى في انجيلهِ (ف ٢٨) . ثم رواهُ اليهود في كتابهم المسمَّى بالتلمود . يقولون انَّ تلاميذ يسوع كانوا سمعوهُ في حياتهِ يذكر انهُ سيقوم من بين الاموات فلمَّا رأوهُ مات ارادوا ان يصونوا شرفهُ ويخدعوا القوم بخبر قيامتهِ

ولكن هلمَّ بنا نبحث عمَّا في هذا القول من الصحَّة ليرى القرَّاء ان الحواريّين لم يفكروا في امر كهذا وانَّهم لو حاولوا تنفيذهُ لنالهم خلاف ما كانوا يؤمّلون فنقول :

إمَّا انَّ الرسل كانوا عالمين بقيامة الربّ يعتقدون بقرب وقوعها لأنَّهم سمعوا بذلك من فمهِ . وامَّا انهم لم يعتقدوا بها البتة . وامَّا انهم كانوا في ريبٍ وشكٍّ من وقوعها . فان قيل (الاوَّل) كان حقهم ان ينتظروا بل . الصبر ان يقوم الرب في الوقت المعيَّن دون ان يبتدروا الامر فيطمسوا شيئاً من معالمهِ ويُنقصوا شأنهُ . وان قيل (الثاني) اعني عدم اعتقادهم بقيامة المخلّص فلم يبقَ لهم بعد موتهِ الَّا ان يتشتَّت شملهم ويتفرَّقوا تحت كل كوكب لانَّ كلَّ امانيهم في معلّمهم بطلت وخابت ولم يَعُد لهم ثقة في كلامهِ ورجاء في قيام مملكتهِ . فليس هو اذن المسيح الموعود بهِ ولا داعي يحدو بهم الى ان يُنفذوا كلام رجل مكَّار خدَّاع . وان قيل (الثالث) وهو اقرب الى الصواب اعني انَّهم كانوا يتردَّدون بين الرجاء وخيبة الآمال فكان ايضاً الأولى بهم ان ينتظروا ريثما تنقشع سحابة الشكّ . فإمَّا تتوطَّد آمالهم بقيامة معلّمهم ويتحقّقون انهُ مسيح الله وامَّا يقنطون منهُ فلا يعودون الى ذكرهِ ابد الابد

, ولعلَّ قائلاً يقول انَّ الاهواء استفزَّت التلاميذ فخدعهم حبّهم الاعمى لمعلّمهم وسوَّل لهم الشيطان ان يسرقوا جثتهُ ليُشيعوا بخبر قيامتهِ

فنجيب على المعترض لو صحَّ قولك لما تمَّ ذلك الَّا باحد امور ثلاثة اعني بالقوَّة الجبريَّة او بالرشوة او بالمكيدة. وليس اثر للحقيقة في احد هذه الامور

لم يمكن الرسل ان يلتجئوا الى القوَّة الجبريَّة. وذلك لاسباب عديدة منها انَّ القبر كان مختوماً بخاتم الوالي الروماني يحرسهُ جنود متيقظون انذرهم رؤساء الكهنة والشيوخ بخطر السرقة وحذَّروهم فلو حاول التلامذة انتهاك حرمة القبر لما تردَّد الحرَس في ان يحولوا بينهم وبين القبر. ومنها ان الرسل كانوا اذ ذاك في حالة يرثى لها من الخوف والهلع اذ هربوا مذ نظروا معلّمهم في ايدي اعدائهِ. وبلغ الجبن باعظمهم شأناً وهو بطرس الصفا الى ان نكرهُ لمجرَّد اشارة أمةٍ ذليلة قالت انهُ من تلاميذهِ. وان قيل ان بطرس بعد نكرانهِ احبَّ ان يستقتل في سبيل معلّمهِ ليكفّر عن ذنبهِ فجمع التلاميذ وهجموا على الحرس. اجبنا انَّ قتالاً كهذا لا يجري دون ان تبقى آثارهُ من جرحى وقتلى وليس شيءٌ ينبئ بمثل ذلك. ولا نرى بيلاطس البنطي ورؤساء الكهنة يحاكمون الرسل على جناية تُعدّ من اعظم الجنايات. بل يكتفي الشيوخ بان يتهدَّدوا الرسل ويأمروهم بالَّا يكرزوا بيسوع الناصري

ولقائل انَّ الرسل فضَّلوا الرشوة فاعطوا دراهم للحرَّاس الذين مكّنوهم من نقل الجثة. نجيب انَّنا لا ننكر ميل الجند الى الرشوة وقد اشترى اليهود شهادتهم الكاذبة ليقولوا انَّ تلاميذ يسوع سرقوا جسمهُ من القبر (متى ٢٨ : ١٦) . ولكن كيف استطاع الحواريون ان يرشوا الجند وهم فقراء صيَّادون لا ثروة لهم. فان قيل انَّ نيقوديموس ويوسف الرامي كانا من الاغنياء ومن تلامذة يسوع اجبنا انَّ اعداء المسيح كانوا يترصَّدون كلَّ حركات الرسل فلو عرفوا بانَّهم رشوا الجند لما تأخروا عن فحص الامر اذ انَّهم لم يقيموا الحرس الَّا ليمنعوا هذه السرقة. ولكانوا هتكوا السرَّ واباحوا باثم الرسل يوم جعل هؤلاء يبشرون بقيامة سيّدهم كما انَّهم كانوا جازوا الجند بالعقاب لقبولهم الرشوة

فبقي المكر والختل. يقول الخصوم انَّ الرسل سرقوا جثة المسيح كيداً ولكن نرجوهم ان يفيدونا باي طريقة فعلوا ذلك. فيجيب البعض انَّ الرسل فتحوا سرباً تحت

الارض حتى بلغوا القبر فاخذوا الجثّة التي فيه. ولكن ساء ظنّهم فكيف يا تُرى امكن الرسل بثلاثين ساعةً ان ينجزوا عملاً كهذا فيفتحوا سرباً واسعاً وينقروا الصّخر. ثم كيف استطاعوا ذلك دون ان يلاحظهم الحرّاس ويسمعوا صوت المطارق. او كيف لم يبقَ اثرٌ لهذا السرب بعد فتحهِ فيشهد على السارقين — يقول غيرهم بل دخل الرسل القبر من بابهِ اذ كان الحرس نياماً. يجيب القديس اوغسطينوس: « تأتون أيها اليهود بشهود نيام أليس الأحرى ان يقال أنكم انتم نيام اذ توسّلتم بهذه الوسيلة ». والحقّ يقال انَّ شهادة النائم لا تُقبل في القضاء. بل كان الحرس يستوجبون العقاب فلماذا لم يحاكمهم اليهود ويزجّوهم في الحبس. ثم زد على ذلك اموراً كثيرة لا تُصدَّق منها انَّ الحرّس كلّهم ناموا في وقت واحد النّوم الغرق وانّهم لم يحسّوا بضوضاء كهذه فانَّ فضَّ ختم الولاية ودحرجة الحجر ونزع الجسم كلّ ذلك لا يتمّ دون حركة وضجّة. ثم ان السارق اذا سرق اسرع ما امكنهُ لا يبالي بالكسر والتبذير والخراب. ونرى على خلاف الامر الاكفان ومنديل الراس موضوعةً منظّمة كلٌّ منها على حدة (يوحنا ٢٠ : ٧—٨) افليس هذا دليلاً على انهُ ليس ثمّت نهبٌ ولا سرقة

فهذه مجمل الاعتراضات التي اخترعها نكرة قيامة المسيح لينبوا هذا السرّ العجيب الى الخداع والمكر. فترى انَّ حججهم باطلة لا تقوم بازاء العقل الصائب ويحق لنا نحن النصارى ان نقول بكل صدق ويقين انَّ الرسل لم يكونوا من اهل الخداع والغشّ وان شهادتهم صادقة

ولكن ان كانوا لم ينووا الكذب والمكر أترى لم يكونوا هم انفسهم من المخدوعين فآمنوا دون بيّنة كافية وايقنوا بصحّة امر لا ركن لهُ ولا سند وكان انخداعهم مجلبةً لانخداع الذين سمعوهم. ففي عدد آخر نبحث عن هذه القضيّة الثانية ونعرضها على حكم العقل والانتقاد (ستأتي البقيّة)

بحث جغرافي

في سيرة القديس مارون الناسك

للاب هنري لامنس اليسوعي (تابع)

وان قيل ما اللغة التي كان القوم يتكلَّمون بها في القورسيَّة اجاب الذين يتسرَّعون في الأحكام قبل الوقوف على كنه المسائل انها ينبغي ان تكون اليونانيَّة لان توادوريطوس اسقف البلاد كتب بها. غير انَّ هذا التعليل لا يرضينا ولا يصلح حجَّةً لاقناعنا لانَّ لدينا من الادلة الواضحة ما يؤيد العكس (١

رأينا في مقالة سابقة (المشرق ٤: ١٠٨٦) ان توادوريطوس مع ان لغتهُ الاصليَّة هي اليونانيَّة (٢ كان عارفًا ايضًا بالسريانيَّة. غير ان المقام لم يسمح اذ ذاك بالافاضة في الكلام على هذه المسألة المهمّة ولولا ذلك لأتينا بشهادة المؤرخ اليوناني ملالا (٢: ١١٠ طبعة اكسفورد) وهو يثبت ان العامَّة في انطاكية كانوا يتكلمون الآراميَّة واماَّ الباقون فاذا كانوا لا يتكلمون بها فكانوا على الاقلّ يفهمونها. ويثبت الاستاذ العالم كوغنير (Kugener) اثباتًا صريحًا (في الشرق المسيحي ١٩٠٢ ص ٢٠٢) ان السريانيَّة كانت اللغة الشائعة في انطاكية وضواحيها

وهنا نستأذن في ان نضمّ الادلَّة التابعة الى البراهين التي سبق ايرادها: ان ابوي توادوريطوس كانت لهما علائق مكينة مع الناسك القديس مقدونيوس وقد اخبر توادوريطوس بالتفصيل كيف ان تجرُّدهُ لخدمة الله كان نتيجة تحريضات الناسك

---

١) اذا كان برهاننا صحيحاً اثبت خروج الذين يملّون التعليل الآتي عن قواعد الاستدلال العقلي وهو قولهم: « ان جملة اساقفة في سوريَّة كتبوا باليونانيَّة فاذًا سوريَّة كلها كانت تتكلم اليونانية » وسنثبت في ما يلي من كلامنا عن القورسيَّة ان نتيجتهم هي اوسع من المقدَّمات. وقد سبق لنا تبيان ذلك في كلامنا على ناحية انطاكية (المشرق ٤: ١٠٨٣) التي يحاول البعض ان يصوّروها لنا مثل بلاد يونانية. وفي املنا انَّنا نستطيع اثبات الامر نفسه عن سائر نواحي سوريَّة متى تيسَّرت الفرصة

٢) كما قد صرح بذلك راجع مجموع مين (في المجلد ٨٣ ص ٨٤٢)

المذكور فقال ان مقدونيوس كان يتردّد على منزلهم في انطاكية فلمّا ترعرع توادوريطوس اخذ الناسك يرغبهُ ترغيباً شديداً في خدمة الله (١ والحال ان مقدونيوس لم يكن يعرف غير السريانيّة (٢ واذ قد ثبت ذلك وكان التسليم صعباً بان مخاطبات هذا الرجل القديس كانت تجري بواسطة ترجمان فيترجح عندنا انهُ لم يكن توادوريطوس وحدهُ يفهم السريانيّة بل ان ابويه ايضاً كانا يفهمانها وكانت هذه العيلة كما هو معروف من العيال الوجيهة في انطاكية

ولنا في الحادث الآتي بيانه دليل اقوى واصرح فقد اخبر توادوريطوس في تاريخ الرهبان (٣ ان الشيطان ظهر لهُ ذات ليلة في قورس وهو اسقفها فهدّدهُ تهديدًا مخيفًا مرعبًا وكان يخاطبهُ باللغة السريانيّة وكان احد رفقائه راقدًا معهُ في غرفته فسمع ايضًا الكلام عينه وسمعهُ كذلك الحشم الذين في المنزل. فمن هذا الحادث الذي اقتصرنا على ذكر خلاصته يسوغ لنا ان نستنتج النتيجة الآتية:

ان ظهور الشيطان الذي اخبر عنهُ توادوريطوس لا يخلو ان يكون امّا حلمًا مجرّدًا او رؤيا حقيقيّة. على ان الظروف التي قارنت الحادث ترجح انهُ كان من قبيل الثاني ومع ذلك لا نجد بأسًا اذا عددناهُ من قبيل الافتراض الاول بل انهُ ربّما جاء من هذه الحيثيّة أوفق وافيد لما نحن بصدده. وعليه اذا قلنا انهُ كان حلمًا مجرّدًا فبما ان النائم لا يحلم اصلًا بلغة لا يعرفها او بلسان لا يتكلم به الّا نادرًا ينتج عن ذلك ضرورةً ان توادوريطوس كان يتكلم عادةً السريانيّة او بالاقلّ انهُ كان يفهمها بسهولة. واذا قلنا ايضًا انهُ كان رؤيا حقيقيّة يصعب ان نبيّن كيف ان جميع سكان الدار الاسقفيّة فهموا مثل توادوريطوس تهديدات الشيطان لو لم تكن اللغة السريانيّة مألوفة عندهم

ويقول توادوريطوس ايضًا (في المجلد ٨٣ ص ٣١٣) انهُ وجد كتبًا كثيرة سريانيّة من تأليف برديسان والراجح انهُ لقيها ضمن ابرشيته حيث كانت اقامته او في انطاكية التي كان يتردّد اليها حينًا بعد آخر كما سترى في اثناء مقالتنا هذه. ولا نجد

---

١) تاريخ الرهبان (مين ٨٢ ص ١٢١٤, ١٢١٥).

٢) راجع المشرق (٤: ١٠٨٣) امّا الناحية الواقعة بين انطاكية وحلب فراجع بشأنها الاباء اليونان المجلد ٨٢ والصفحة ١١٦١ حيث ورد ذكر السريانية كلغة البلاد

٣) راجع مجموع الآباء لمين (ج ٨٢: ١٢٤٢, ١٢٤٤)

ادنى صعوبة للتسليم بالفرض الثاني لانهُ يدلُّ على انتشار الكتب السريانيَّة في مدينة قد طالما صوَّروها لنا يونانيَّة محضة

وكان توادوريطوس يرغب في زيارة النسَّاك الكثيرين بابرشيَّتهِ ويلتذ بمحادثتهم طويلًا وسترى بعد هـذا انهُ لم يكن احد من هؤلاء النسَّاك يعرف اليونانيَّة . وبما انهُ لا يأتي في كل ما خلَّفهُ من الكتابات بذكر ترجمان وجب التسليم بان محادثتهُ التي كانت تطول في بعض الاحيان أيامًا (١ قد كانت تجري بالسريانية وانهُ كان يعرف هذه اللغة حق المعرفة ويتكلم فيها بسهولة

ومما يجب التسليم بهِ وينتج ضرورةً عما قدَّمناهُ هو ان الاسقف المذكور ما كان وحدهُ يفهم السريانيَّة بل ان جميع عشرائهِ من سكان الدار الاسقفيَّة كانوا يفهمونها ايضًا ولا يبعد انهم كانوا يتكلمون بها . واذا صدق هذا الامر على الدار الاسقفية فماذا ينبغي القول عن سائر المدينة التي كان الاسقف كما سبق القول اعظم شخص معتبر فيها ؟

ليس الجواب على هذا السؤال بصعب لانَّ كاتب ترجمة توادوريطوس يصرّح دون مواربة « بان الجميع تقريبًا في قورس وفي القورسيَّة كانوا يتكلمون باللغة السريانية وان عدد اليونان لم يكن فيها شيئًا مذكورًا » (٢ ويؤخذ من كلامهِ انَّ ذلك كان أخصَّ الاسباب التي حملت توادوريطوس على القبول رغمًا عن ارادتهِ باسقفيَّة هذه المدينة لانهُ لما كان عالمًا بارعًا وخطيبًا مفلقًا يضاهي فم الذهب بل يكاد يفوقهُ ايضًا في مسائل تفسير الكتاب المقدَّس رضي ولكن مع كرهٍ ومشقَّةٍ نفس بان يدفن كل ما رُزق من مواهب العقل في مدينة صغيرة قد لا تأتي فيها هذه المواهب بفائدة لعدم وجود جمهور من السامعين يقدر على مجاراته في السبيل الذي يرومهُ . غير انهُ ما لبث ان ذلَّل هذه العواطف البشريَّة وانقطع بكليتهِ الى الاهتمام بمنفعة وخير القطيع الذي فُوّض الى تدبيرهِ

وللقارئ ان يعترض بخطب توادوريطوس ويقول انها كُتبت كلها باليونانيـة فنحن نتلقَّى الاعتراض بالقبول غير واجدين شيئًا من الصعوبة في ردّهِ وسبب ذلك ان غالب

١) راجع في تاريخ الرهبان ترجمة مار يعقوب (ف ٣)
٢) الاباء اليونان لمين (مج ٨٤ ص ١٤٣, ١٤٤)

الخطب التي لتوادوريطوس ألقاها في خارج قورس لانهُ كان من محبي الحركة والتنقُّل وكثيراً ما كان يزايل ابرشيته بدليل انهُ لمَّا ثارت الخصومات بسبب بدعة نسطور وكان اسقف قورس صديقاً للمبتدع من صباه صدرت لهُ الاوامر من قبل الامبراطور ان لا يبارح مركزهُ فشقَّ عليه هذا المنع كثيراً كما يتبيَّن ذلك من رسائله ولكن ما لبث المنع ان ارتفع بعد مدَّة وجيزة فعاد الاسقف المذكور الى اسفاره

وكان توادوريطوس يتردَّد خاصةً على اثنتين من المدن اعني بهما انطاكية وبيريه (حلب) وكانت الاولى على مسيرة يومين من مركزه والثانية اقرب من هذه المسافة (١

اما انطاكية فكانت وطنهُ ولهذا كان يكثر التردُّد اليها حتى اضطرَّ الى الاعتذار لرؤسائه عن طول اقامته بها (٢. واشهر خطبه وافصحها كما هو معلوم عشر خطب موضوعها العناية الالهيَّة وقد شهد في رسالته الى البابا انهُ ألقاها كلها في مدينة انطاكية ثم انهُ في رسالته الخامسة والسبعين يذكر خمسة اسباب حملتهُ على اعزاز اهالي حلب وآخر هذه الاسباب هو انهم «كانوا يسمعون خطبهُ بلذة ومسرة ولهذا كان يبذل جهدهُ في ان يلقي عليهم احسن وافضل ما عندهُ من هذا الصنف». ولنا ان نقول بعبارة أخرى انهُ كان يحب الكرازة في انطاكية وحلب ليقينه بان السامعين في هاتين المدينتين يفهمون خطبهُ اليونانيَّة ويقدّرون فصاحتها بخلاف الحال في قورس

على انهُ لا يصح الاستنتاج من هذا ان حلب كانت بلدة يونانيَّة فقد ذكر نلدكه (٣ ان الاحوال فيها من الوجه التاريخي كانت شبيهة باحوال الرُّها ومن المعلوم ان الرُّها كانت في ذاك العهد آراميَّة بحتة بل مركز الآداب الآراميَّة ولهذا يجب القول ان حلب ايضاً كانت ارامية بسكانها ولغتها ولكنها لمَّا كانت مدينة كبيرة تجاريَّة لم يكن ليصعب فيها وجود جمهور من السامعين يجيدون فهم اليونانيَّة. فان السوريين في كل زمان كانوا يتعلمون كثيراً من الالسنة والامثلة على العارفين بينهم بلغات عديدة لم تفت

---

١) اخبر توادوريطوس انهُ كان يسافر مساء النهار من حلب فيصل الى قورس في صباح اليوم التالي

٢) اعمال الاباء اليونان (مج ٨٣ ص ١١٣٥ و ١١٤٦)

٣) راجع المجلة الاسيويَّة الالمانيَّة (ZDMG) سنة ١٨٨٥ ص ٣٣٤

قطّ من يلتمسها . وكما اننا اليوم نجد في المدن السوريّة عددًا غفيرًا ممّن يفهمون الخطب باللغات الاجنبية هكذا كان الامر في ايّام توادوريطوس . ومثلما لا نستطيع ان نستنتج في الوقت الحاضر ان اللغات الاجنبية متغلّبة على اللسان الوطني هكذا القول ايضًا عن خطب اسقف قورس

فاذا كان الذين يفهمون اليونانية في قورس قومًا قليلين فما ظنك بسائر الناحية ؟ وقد اخبر توادوريطوس ان سكّان المقاطعة القرائية التي كانت القورسية تابعةً لها كانوا يتكلمون السريانية (١

هذا فضلًا عن ان هيرو بوليس (منبج) مركز رئيس الاساقفة الذي كان يخضع لهُ اسقف قورس كانت ايضًا مركزًا مهمًّا سريانيًّا . وبعد قليل لوفاة توادوريطوس تولى الكرسي المذكور فيلكسينوس احد مشاهير الكتبة عند السريان . وفي جرمانيقية التي تسمى اليوم مرعش كان القوم ينصبُّون ايضًا على آداب اللغة السريانية

ولقد سبق لنا ايضاح ما كان من هذا القبيل في مدينتي انطاكية وحلب (٢ وعلى ذلك لم يبقَ من داعٍ للتسليم بان ابرشية قورس وحدها التي كانت في شمالي سوريّة محفوفةً من كل انحائها بالبلدان الارامية قد خرجت عن هذه الدائرة . والحق يقال ان هذه الناحية كلها لم تكن لها غير لغة واحدة اي الارامية التي كان المتأدبون يضيفون اليها معرفة اللغــة اليونانية . قال المستشرق ساخو : « من اعظم مرافق النصرانية ان الوعّاظ كانوا يستطيعون ان يكرزوا بلغة واحدة اي الارامية من حدّ انطاكية حتى بابل »

واذا حصرنا الكلام في المتوحدين الذين كانوا يسكنون صحاري القورسية نرى الادلة متظاهرة على انهم كانوا باسرهم تقريبًا اراميين يتسمّون باسماء سريانية مثــل مايسياس واشبسياس ومارون وسلامانس وماديس وزابيناس وباراداتوس وتاليلايوس

---

١) تاريخ الرهبان (٨٠ ص ٣٣٧ راجع ايضًا المجلّد ٨٣ ص ١١٦٣ و ١١٦٤) وفيهِ يخبر كيف ان رهبان دير على الفرات كانوا يرتلون المزامير بالسريانية التي هي لغتهم الاصلية كما ذكر ذلك بالنص الصريح

٢) راجع كذلك المشرق (٤ : ١٠٨٢)

ومارانا (١ وقد قال توادوريطوس عن الاول اي مايسياس قولًا صريحًا « انهُ كان سريانيًا بلغته » (٢ اما الراهب القديس ابرهيم الذي ترقى بعد ذلك الى اسقفية حران في بلاد ما بين النهرين فذكر توادوريطوس في معرض اخباره عن زيارة الامبراطور لهُ مع كل حاشيته ان الموما اليه لم يكن يفهم كلمة واحدة يونانية (٣ وروى في موضع آخر عند كلامهِ على الناسك تاليلايوس انهُ لما زارهُ تعجب كثيرًا « اذ سمعهُ يجاوبهُ باليونانية » (٤ لان الناسك المذكور كان على حسب رواية اسقف قورس قيليقي الجنس وكل ذلك يدل على ان معرفة اليونانية لم تكن شائعة بين السوريين الوطنيين .

وان قيل ما هي الليتورجية التي كان اكليروس قورس يجري عليها قلنا ان الجواب على هذه المسألة امر صعب بالنظر لعدم وجود معلومات صريحة بشأنها. ولكن بما اننا قد اثبتنا ان الارامية كانت لغة الناحية ساغ ان نستنتج ان الليتورجية كانت تجري بهذه اللغة ذاتها ولعلها لم تكن تجري بغيرها الّا في كنيسة قورس الكاتدرانية. وفي ترجمة الناسك ابرهيم الذي سبقت الاشارة اليه دليل ظاهر على ما نقول فقد كان على ما روى توادوريطوس من ابناء القورسية حيث صرف زمانًا طويلًا في الحياة النسكية وفي الختام شخص الى لبنان وهدى فيه كثيرين من الوثنيين وعلّمهم العبادة الالهية الحقيقية. ولا ريب انهُ كان يخاطبهم بالسريانية لانهُ لم يكن يعرف سواها ويُتمّ لهم الليتورجية كما قد شاهدها مستعملةً في القورسية وطنه (مج ٨٢ ص ١٢٢٥) قال ساخو: « ان الاراميين نشروا النصرانية في الشرق » وعلى ذلك فان الكنائس التي أسسوها قد علموها بالضرورة ليتورجية ارامية. وكانت السريانية كما هو معلوم اوّل لغة ليتورجية مستعملة (٥ وفي ما اوردناه بهذا الشان كفاية للقارئ حتى يتيسَّر لهُ

---

١) راجع تاريخ الرهبان

٢) راجع مين (مج ٨٢ ص ١٣١٦)

٣) تاريخ الرهبان ص ١٢٢٨

٤) هذا مما يوجب الافتراض ان الاسقف خاطبهُ اولًا باليونانية

٥) راجع في معجم اللاهوت الكاثوليكي (١ : ١٤٠٢) مقالة للاب ڤاليه الصعودي الذي نسب اليه بعضهم رايًا مخالفًا لما نحن فيه

الحكم فبقي علينا ان نبحث عن احوال النصرانية في القورسية وهكذا نتمم كلامنا عن جغرافية هذه الناحية

٣

ان القورسية كانت كلها بالتقريب مسيحية في ايام توادوريطوس كما يُفهَم ذلك من عدد الثامانة كنيسة التي يقول الاسقف المذكور انهُ كان مكلفاً بتدبيرها. ويظهر انهُ كان قد اتخذ بعض اعوان لهُ من الخوارنة الاسقفيين لادارة الكنائس الكبرى في ابرشيته وفي رسالته ١١٣ يسمي اثنين من هؤلاء الخوارنة. وبناء عليهِ يجوز ان نحسب القورسية كلها مسيحية في زمانه اذ لم يكن فيها من الوثنيين الّا افراد قلائل (١

وكان في القورسية جماعة من الهراطقة وعلى الخصوص من المرقيونيين. قال توادوريطوس: «ان ثماني قرى افسدتها هرطقة المرقيونيين مع الاماكن المجاورة لها ارجعتُها الى الطريق القويم (٢. وكانت هناك ايضاً قرية اخرى عامرة بالتابعين لمذهب الاونومين وقرية غيرها اريوسية فتوفقتُ لانارة الجميع بالنور الالهي وهكذا بنعمة الله لم اترك في ابرشيتي اثرًا للهرطقة ولم يكن ذلك ليستطاع دون اقتحام اخطار واراقة دم لانني كثيرًا ما تعرضت لرجم الهراطقة». ويشهد في موضع آخر (٣ انهُ عمَّد عشرة آلاف من الهراطقة المرقيونيين واثر هذا الانتصار الاخير على الجحيم ظهر لهُ الشيطان كما سبق الخبر محاولًا توقيفهُ عن قتال الغواية والضلال

امَّا دخول النصرانية الى القورسية فلا نعلمهُ بالتحقيق ولكننا نظن انهُ كان في الصدر الاول بالنظر الى قرب هذه الناحية من انطاكية احد مهود الدين المسيحي وقد حضر احد اساقفتها مجمع نيقية. واماً خلفاء توادوريطوس فلا نعلم منهم غير اسماء ثلاثة فقط (٤ ولا ريب ان كرسي قورس فقدَ اهميتهُ من بعد انتشار بدعتي نسطور ويعقوب البرادعي. ومع ذلك وجدنا في جريدةٍ لأسقفيات بطريركية انطاكية ترتقي على

---

١) راجع رسالتيهِ ٦٧ و ٦٨
٢) الرسالة ٨١
٣) تاريخ الرهبان ١٢٤٢ الخ والرسالة ١٤٥ و ١١٣
٤) لوكيان: الشرق المسيحي (٢: ٩٣٠ الخ)

ما نظنهُ الى القرن الثامن ان قورس كانت معدودةً في ذلك العهد من جملة الكراسي المطروبوليطية لكن لم يكن لها اسقفيات تتبعها (راجع اخبار بطاركة انطاكية والقدس في الاسفار الاورشليمية ص ٣٣٧)

ونعلم ان جسدي الشهيدين المعظمين قزما وداميانوس قد دُفنا في قورس ولذلك قد تُسمَّى هذه المدينة في بعض الاحيان اكرامًا لهما بمدينة القديسين. واخبر توادوريطوس نفسهُ كيف انهُ في ذات يوم نجي من الحريق الكنيسة الشيّدة على ذكر هذين الشهيدين (١ القديسين. وفي موضع آخر يذكر ايضًا في جملة كنائس مدينته الاسقفية كنيسة على اسم الشهيد ديونيسيوس (٢ ويخبر كذلك عن دير قائم بحذاء احدى كنائس قورس (٣ وفي رسالتيه ٦٦ و٦٧ يتكلم على هيكل شيّدهُ هو وكرّسهُ للرسل القديسين (٤. وكان في قورس ايضًا مصلّى على اسم الناسك القديس مرقيانوس ومن العجيب انهُ تشيَّد في حياة الناسك المذكور (٥

فكل هذه الآثار الدينيّة تجيز لنا الحكم بان الديانة كانت في القورسية زاهرةً زاهيةً بأيام راعيها الاثيل واسقفها الغيور

ولنا ايضًا دليل آخر على ازدهار الديانة نأخذهُ من وفرة عدد النساك في الناحية المذكورة التي كانت احسن البلاد ملاءمةً لحياة الزهد والعبادة لانها كثيرة الجبال بعيدة عن المراكز الكبرى والطرق التجاريّة وافية بحاجات قوم يكتفون بالقليل حتى كان يصحُّ ان تدعى فردوس المتوحدين ونعيمهم وهذا هو السبب الذي من اجله انتشرت فيها كثيرًا هـذه الهيئة الاخيرة من حياة النسك. وفي تاريخ الرهبان لتوادوريطوس الذي خصَّص منهُ النصف بتراجم عظماء الرهبان في القورسية قلّما يأتي بذكر الاديار (٦

١) مجموع الآباء (ج ٨٤: ص ٧٨٦ و٧٨٧)

٢) تاريخ الرهبان الفصل ١١

٣) وكانت الكنيسة على اسم الرسل الاطهار. تاريخ الرهبان ١٣٢٩

٤) راجع كذلكَ المجلد ٨٣ ص ١٣٥٠

٥) راجع المجلد عينهُ ص ١١٤٧ و ١١٤٨

٦) في الرسالة ١١٧ يتكلم عن أليوس ويقول عنهُ انهُ «إكسرخوس الرهبان عندنا» وهي عبارة تدل على وجود دير في قورس او في الابرشية التابعة لها. ويذكر ايضًا اديارًا أُخرى في المجلد ٨٣ والصفحة ١٢٢٥ و ١٢٦٠ غير ان الاديار كانت هناك قليلة جدًّا

بل يذكر المتوحدين الذين كان يحتشد حولهم بعض التلاميذ فيقتفون آثارهم وينهجون نهجهم غير انهم كانوا يعيشون هم ايضاً متوحدين دون ان يجتمعوا ضمن حظيرة دير

وكان توادوريطوس يحبّ ويكرّم هؤلاء الرهبان القديسين الذين كانوا يطرّون ابرشيته بعرف فضائلهم ولهذا كان يكثر من زياراتهم ومحادثتهم وكل ما كتبهُ عنهم في تاريخ الرهبان قد رآهُ فيهم او سمعهُ منهم. على ان الرهبان المذكورين قابلوهُ بمثل عواطفه واثبتوا لهُ ذلك لمّا أُبعد عن ابرشيته فانهُ لم يجد اذ ذاك اصدقاء اشدّ اخلاصاً من هؤلاء القوم الذين كانوا كما قال عنهم « يحتقرون هذه الحياة الزائلة متوقعين الحياة الابديّة » (١

وقد سبق لنا تسمية بعض ابطال هذه العيشة النسكيّة فبقي علينا ان نذكر اخصّ واحد بينهم اعني به القديس مارون وكل ما تقدّم من الكلام جعلناهُ كتوطئة تمهد لنا السبيل لتعيين وطن هذا القديس العظيم والمكان الذي صرف فيه حياته فاذا لم نتوصل دائماً الى نتائج نهائية واذا اكتفينا اكثر الاحيان بالظنّ والتقدير فالذنب كل الذنب على فقد المعلومات المؤكدة في هذا الشان. غير ان ما سنبسطهُ ممّا يستحق الانتباه واملنا ان يكون محرضاً لاولي البحث على الجدّ والتنقيب لعلهم يتوفقون الى ما لم نتوفق اليه. وفي كل حال ليس من غايتنا ان نلزم القارئ باتباع آرائنا ولكننا نتوخى من كل ذي ادب ان ينظر فيها منتقداً حتى تنجلي المشاكل وتتبدد الغياهب. وممّا يسرّنا جدًّا هو ان نداءنا للطوائف المسيحية الشرقيّة حتى تبذل الجدّ اللازم في الابحاث التاريخيّة (٢ قد لاقى قوماً يسمعون فهبّ بعض الأدباء واخذوا يتعبون في تواريخ طوائفهم ونشروا منها اشياء حرية بالاعتبار وأملنا ان يزدادوا حمية في هذا الشان لما يُرجى عن عملهم من المنفعة. وفي هذا المقام لا نرى بدًّا من الثناء على بعض أدباء الطوائف الشرقيّة لما اتحفوا به الدروس التاريخيّة من التآليف النافعة كما نمدح ايضاً سائر الذين نشروا في مجلّة المشرق ابحاثاً مهمة في شؤون طوائفهم وآدابها الطقسيّة وآثارها القديمة

---

١) الرسالة ١٣٥

٢) راجع في مجلة المشرق (١ : ٢٦١) مقالتنا المعنونة : هبًّا الى درس تاريخنا

٤

اين وُلد القديس مارون ؟ هذه مسألة كان في وسع توادوريطوس كاتب ترجمة هذا القديس ان يجاوب عليها جوابًا شافيًا غير انهُ لسوء الحظ لم يذكر عنها شيئًا في الكلام الوجيز الذي تركهُ ولهذا وجب علينا ان نسعى بالافصاح عمّا سكت عنهُ . على أننا لسنا باوَّل من سعى وراء هذا الامر فان حضرة الخوري ميخائيل غبريل يقول في كتابه تاريخ الكنيسة المارونيَّة (ص ٨٤) ما نصهُ : « ان القديس مارون ولد . . . في بلدة تدعى مارونيا البعيدة نحو ثلاثين ميلًا عن انطاكية في جوار مدينة قورش »

(ستأتي البقيَّة)

خواطر

في بعض بلاد الشام القديمة

للاب هنري لامنس اليسوعي

نشر جناب الاديب امين ظاهر افندي خير الله في المقتطف عدَّة مقالات تحت هذا العنوان « منزلة الشعر من التاريخ » والحقّ يقال ان مثل هذه الابحاث تكشف القناع عن احوال بلادنا السابقة وتبعث الهمم على درس فحول الشعراء الاقدمين

ومع ما نجد في هذه المقالات من الفائدة والجدوى قد لقينا في بعض اقوال المؤلف ما يستدعي النظر والانتقاد ونكتفي اليوم بايراد بعض الملاحظات خطرت لنا في اثناء مطالعتنا للصفحتين ٢١٠ و ٢١١ من عدد آذار من السنة الحاليَّة

١ ذكر جناب الكاتب (ص ٢١٠) بيت عمرو بن كلثوم التغلبي :

ألا هُبّي بصحنكِ فاصبحينا ولا تُبقي خمور الاندرينا

ثمَّ الحقهُ بهذا التفسير : « وأندرين لم تزل آهلة حتى الآن وموقعها في لواء مرعش من ولاية حلب وهي الآن قصبة قضاء باسمها »

(قلنا) أننا نعرف قضاء يُدعى اليوم بقضاء اندرين لكنَّ القصبة التي اشار اليها

جناب الكاتب مجهولة اليوم لا تُعرف ليس فقط في لواء مرعش بل في ولاية حلب كلّها. وقد بحثنا عن اندرين هذه في سالنامة ولاية حلب المطبوعة سنة ١٣١٩ هـ فلم نجد لها ذكرًا في القضاء المدعوّ باسمها (ص ٣٧٨). امَّا ڤيتال كوينه فقد ذهب في كتابه الشهير عن تركيّة اسيا الى انّ قصبة قضاء اندرين انّما هي كبان. وعلى كلّ حال لا نظنّ انّ موقع اندرين التي ذكرها عمرو بن كلثوم واقعةٌ الى هـذا الحدّ من الشمال لبُعدها عن بلاد العرب بل عن تخوم سوريّة وان قيل انّها داخلة في حدود ولاية حلب اجبنا ان موقعها الجغرافيّ غير موقعها السياسي. فلو كانت اندرين هـذه واقعةً حيث جعلها امين افندي خير الله لكانت في حيّز بلاد الاناضول شمالي جبل طورس الذي يعتبرهُ كل الجغرافيين كاحد حدود سوريّة ولو وُجدت هناك بلدة بهذا الاسم لما ضرب جغرافيّو العرب صفحًا عنها

وقد ذكر قدماء كتبة العرب بلدةً بهذا الاسم نظنُّها هي التي قصدها الشاعر. ولنا على ذلك شاهد صادق في معجم البلدان (١: ٣٧٣) لياقوت الروميّ قال:

« اندرَين اسم قرية في جنوبيّ حلب بينهما مسيرة يومٍ للراكب في اطراف البريّة ليس بعدها عمارة وهي الآن خراب ليس بها الّا بقيّة الجدران واياها عنى عمرو بن كلثوم بقولهِ: ألا هبّي (البيت). وهذا ما لا شكّ فيهِ وقد سألتُ عنهُ اهل المعرفة من اهل حلب فكل وافق عليهِ »

وقد نقل صاحب مراصد الاطلاع على مألوف عادتهِ مُجمل قول ياقوت فاثبتهُ. ولنا ما يؤيد قولهما ويزيدهُ بيانًا. فمن ذلك انّ الخربة اندرين معروفة منذ زمن طويل وموقعها على مسافة نحو مئة كيلومتر (١ من حلب في جنوبها الشرقي. وكان الرومان يدعونها باسم اندرونة (Androna) وقد وُجدت فيها عدّة كتابات يونانيّة (٢ واطلال ابنية واسعة وكنائس عديدة وقلعة كبيرة (Κάστρον) وموقع هذه المدينة في مكان جيّد. التربة كثير الخصب الّا انهُ خراب. والظاهر ان اندرين المذكورة كانت بلدة ذات شأن ولعلّها كانت كرسيًا اسقفيًا

ثم نعلم ايضًا انّ اندرين التي نحن في صددها لم تكن بعيدة عن منازل بني تغلب

---

١) وذلك اكثر ممَّا ذكرهُ ياقوت بقولهِ انّها على مسيرة يوم للراكب

٢) راجع مجموع الكتابات اليونانيّة CIG 8228-8231 ثم مجموع وادنغتون Waddington, 2637 ثم مجلّة الجمعيّة الفلسطينيّة الالمانيّة ZDPV, XXII, 133 etc. XXIII, 97.

في الشام اعني في الصحراء الشاميَّة الواقعة بين منبج والفرات ورصافة. فلا غرو ان التغلبيين عرفوها ومنها كانوا يسبئون الخمر

ويؤخذ من كتابة اكتشفها المسيو هرتمان (ZDPV,l.c.) انَّ اندرين كانت مأهولة عامرة سنة ٥٥٨ للمسيح اعني على عهد الشاعر عمرو بن كلثوم وليس من دليل على انها خربت بعدهُ بزمن قليل. والكتابة المذكورة تفيدنا بان اهاليا كانوا يشيّدون بناية كبيرة في السنة المزبورة

٢ وفي الصفحة نفسها من المقتطف ورد ذكر بلدةٍ اخرى لا نوافق جناب امين افندي على تعيينهِ لموقعها. وهي «شِبام» المذكورة في بيت امرئ القيس:

انفٌ كلون دم الغزال مُعتَّق من خمر عانة او كروم شبام

فزعم انَّ «شِبام هو موضع بالشام»: قلنا انَّ شباماً علَم لعدَّة امكنة وهي كلها في جنوبيّ جزيرة العرب كما ورد في معجم البلدان لياقوت (٣: ٢٤٨-٢٥٠) وفي صفة جزيرة العرب للهمذاني (ص ٤٥، ٥٧، ٧٢، ٨٦، ٨٧، ١٠٥ الخ)

٣ وليس تعريف موقع «وادي جدَر» الذي ورد ذكرهُ في بعض ابيات ابي ذؤيب ونقلهُ الافندي هكذا سهلاً. والبيت:

فما انْ رحيقٌ سبتها التجا رُ من اذرعات فوادي جَدَرْ

قال الكاتب الفاضل (ص ٢١٠): «اذرعات هي قرية في حوران ووادي جدَر وهي موضع بالشام (١» صدق بقولهِ انَّ اذرعات من قرى حوران واماً جملة «وادي جدَر» في الشام فليس غايةً في الدقَّة. وقد ذكر ياقوت هذا البيت (٢: ٤٠) وقال انَّ «جدر قرية بالاردن» لكنَّهُ اورد بعد ذلك بيتاً للاخطل:

كأنَّني شاربٌ يوم استبدَّ بهم من قرقف ضمَّنتْها حمصُ او جدَرُ

فقال: هي (جدَر) قرية بين حمص وسَلَمية تُنسَب اليها الخمر. وقال في محلّ آخر عند ذكر دير اسحاق (٢: ٦٤٣) انَّ هذا الدير «بين حمص وسلمية في احسن موضع وانزههِ وبقربهِ ضيعة كبيرة يقال لها جدر التي ذكرها الاخطل»

وقد راجعنا ما لدينا من الرسوم والكتب الحديثة في وصف البلدان فلم نجد محلاً

---

١) وهكذا قال شارح ديوان الاخطل (راجع طبعة الاب صالحاني ص ٩٨ السطر ٦)

يعرف باسم جدَر ولا موضع دير اسحاق. وليس هذا سبباً للشكّ في عدم وجودهما حيث روى ياقوت بكل دقة واشار الاخطل الى موقع جدَر بذكرها مع حمص. ومن ثمَّ نرى أنْ نُميّز «جَدَر» من «وادي جدر» فجدر هي القرية المذكورة في شعر الاخطل وموقعها بين حمص وسلمية امَّا وادي جدر فهي قرية بالاردن كانت تُعرف في قديم العهد عند الروم واليونان باسم جدَرة (Gadara) وهي مُكَيْس الحاليَّة القريبة من نهر الاردن الواقعة على طريق اربد الى طبريَّة او الى الناصرة. ونذكر أنَّنا وجدنا لمَّا مررنا هناك في بعض رحلنا كروماً واثار معاصر قديمة تشهد على انَّ زراعة الكروم كانت شائعةً فيها سابقاً

٤ وقد روى امين افندي (ص ٢١٠) بيتاً لامرئ القيس على هذه الصورة:

كأنَّ التجار أصعدوا بسبيئة من الخصّ حتَّى انزلوها على يُسرِ

(قلنا) أنَّنا نرى انَّ الرواية الصحيحة لهذا البيت هي «الحُصّ» بالحاء المهملة لا «الخصّ» بالخاء المعجمة. وعلى رأينا انَّ الحُصّ هذه هي التي ذكرها ياقوت في معجمه (٢: ٢٧٤) وقال انَّها «موضع بنواحي حمص يُنسب اليه الخمر» ثم يروي بيتاً لابي محجن:

تُروي بخمر الحُصّ لحدي فانَّني اسيرُ لها من بعد ما قد اسوقُها

نعم أنَّنا نعلم ان الحاء والخاء رُبَّما اختلطا في النسخ القديمة ولكن في شهادة ياقوت ما يزيل الشبهة اذ انَّ حصّاً موضع شهير بخمره وليس للخصّ ذكر في المعاجم وقد ذكر المسيو هرتمان (ZDPV,XXIII,76) انَّ على مسافة ٣٠ كيلومتراً شماليّ اندرين بساتين تُدعى بساتين الحَصّ (كذا رواها بفتح الحاء) ويشير موقعها الى بلدة قديمة. الَّا انَّ هذا المكان لا يوافق القرية التي ذكرها ياقوت وقال انَّها في جوار حمص. ولم نجد لها في غير كتابه ذكراً

موارنة حلب الشهباء

لحضرة الكاتب الفاضل القس جرجس منش الماروني

تحت عنوان «الاديار القديمة في كسروان» نشر حضرة الاب الفاضل الخوري

ابراهيم حرفوش المرسل اللبناني مقالة مسهبة في السنة المنقضية من مجلة المشرق الخطيرة ضمَّنها فوائد جمَّة فاجاد في كثير من المقتبسات التي تنطق بما لحضرته من سعة الرواية والاستقصاء في البحث واستاهل شكرًا لذلك جزيلًا

بيد انهُ قد ذُيِّل مقالتهُ بحواشٍ عن موارنة حلب الشهباء تحتاج الى التبصُّر واعمال الفكرة لاصلاح فاسد بعضها واظهار خطإ البعض الآخر. ولمَّا كنتُ ممَّن تطالَّ الى الاستفادة وعكف على درس تاريخ الوطن العزيز احببتُ ان اعمل الفكر في ذلك المرئي والمسموع على سبيل التحقيق لا التنديد فاقول وبالله الاستعانة

١ كنيسة السيدة للموارنة (راجع المشرق ٥ : ٨٩٧)

قال حضرة الاب ابراهيم حرفوش

« من المعلوم انهُ كان لطائفتنا في حلب عدا كنيسة القديس الياس كنيسة على اسم السيدة » واستدلَّ عليها مماً « جاء في ذيل صلوة مديح مريم البتول حيث قال الناسخ: كمل هذا الكتاب المبارك سنة ١٨٣٠ يونانية على يد الحقير الخاطي . . . يوسف من القرية المحبة للمسيح حصرون وكتبهُ لكنيسة (كذا) مريم القديسة » واستظهر عليها « بان الدويهي وصف قبة مذبح هذه الكنيسة في ص ١٢٢ من المجلد الاول من منارته الخ . . . »

(قلنا) ليس بمعلوم انهُ كان للموارنة كنيسة على اسم السيدة عدا كنيسة القديس الياس لا في التقليد الشفاهي ولا في سجلَّات سائر الطوائف المسيحية التي ذهبت طعام النار في كوائن السنة الخمسين من القرن المنقضي. واماَّ استدلالهُ بقول ناسخ صلوة مديح مريم « ܠܐܝܩܪܐ ܕܡܪܬܝ ܡܪܝܡ ܩܕܝܫܬܐ » فان الناسخ يريد انهُ كتب كتاب المديح « لاجل او لاكرام مريم القديسة » لا « كتبهُ لكنيسة مريم القديسة » كما ترجم حضرة الاب. وحسبك ان « المهتمّ في هذا الكتاب المبارك الاخ الخوري فرج » يقول في حاشية أُخرى في الكتاب نفسه انهُ « اوقفهُ للقديس مار ايلياس في حارة الجديدة » فلو كان للموارنة كنيسة على اسم السيدة عدا كنيسة القديس الياس الشهيرة لما كان المهتمّ بنسخ الكتاب خالف ناسخهُ واوقفهُ على كنيسة مار الياس وهو كتاب مخصوص بمدح مريم البتول كما لا يخفى. واماَّ استظهارهُ بوصف الدويهي قبة مذبح هذه الكنيسة اي كنيسة السيدة فهو مخالف لمعنى الدويهي فانهُ يريد

كنيسة السريان الكاثوليك او كنيسة الارمن الغريغوريين والارجح الاولى (١ وناهيك ان الدويهي لا يذكر انها للموارنة فلو كانت لهم لما تأخر عن تخصيصها بهم وهو يذكر احطّ منها من حوادث الموارنة واشيائهم كما يعلم كل من طالع تآليفهُ العديدة فتأمل

٢ دخول الموارنة الى حلب (راجع المشرق ٥: ١٠٢٩)

ثمَّ ان حضرة الاب اتى على زمن دخول الموارنة الى حلب وهو المروي عن سجل اسقفيتهم الذي يذكر اسماء الكهنة الذين توفوا ودُفنوا في كنيسة مار الياس منذ دخول الطائفة المارونية حلب سنة ١٤٨٩ فرمى حضرة الكاتب هذا الكلام على عواهنهِ كما رآهُ دون بحث كافٍ واليك البيان فان كاتب السجل لم يبدأ بهِ سنة ١٦٨٠ كما ظنَّ حضرة الاب بل بدأ بهِ بعد ذلك بازمان لان كاتبهُ او جامعهُ هو المطران جرمانوس حوَّا (٢ كما يُلمح من مطامهِ وقد اخذ معظمهُ عن بعض افادات حرَّرها السيد العلّامة جرمانوس فرحات الشهير في ذيل بعض مترجماتهِ الطقسية الباقي بخطهِ حتى هذا العهد في المكتبة المارونية بحلب. بيد ان هــذا السجل مغلوط ايًّا كان كاتبهُ او مؤلفهُ واعظم دليل على انَّ كاتبهُ قليل التحقيق انهُ يجعل اول اسقف لحلب المطران جبرائيل البلوزاني في حين انهُ قد سبقهُ اكثر من ثلاثة اساقفة على مطرانية حلب المارونيَّة. ومهما كان من الامر فان الطائفة المارونيَّة لم تدخل في سنة ١٤٨٩ كما جاء في السجل المذكور لان جبرائيل القلاعي الشهير وان قال عنــد كلامهِ عن توما الكفرطابي «ان الموارنة لم يكن لهم مطران في كورة حلب» فانهُ يقرّر بان الموارنة كانوا في حلب في أيام الكفرطابي اي القرن الحادي عشر والثاني عشر وان لم يكن لهم مطران في ذلك الزمان (٣ وناهيك ان في يدي اثرًا جليلًا يثبت وجود الموارنة بحلب في العصر الثالث عشر فكيف انقرض هؤلاء الموارنة القدماء من الشهباء في الدهر الرابع عشر ليخلفهم

---

١) كلا الكنيستين القديمتين على اسم السيدة بيد انهُ لا يمكن تعيين الكنيسة التي يريدها الدويهي منهما لان النار التهمتهما في السنة الخمسين المذكورة

٢) ارتقى الى الاسقفية سنة ١٨٠٤ وقضى نحبهُ في عام ١٨٢٧ للمسيح

٣) انظر ص ٣١٧ من روح الردود وص ٣٣٩ من تاريخ الموارنة للدويهي

الموارنة الحدثاء في القرن الخامس عشر فهذا من الامور الصعبة التوفيق وليس باليد ما يثبت الانقراض اثباتاً باتاً. فغاية ما يجب ان يؤوَّل به ما ورد في السجل السابق الذكر ان الارتحالات المارونية من لبنان الى حلب الشهباء ابتدأت منذ القرن الخامس عشر الى ان كثرت في القرن السادس عشر كما يعلم اهل البحث والاطلاع على عمومهم. هذا ولا ينكر بان موارنة حلب لم يكن لهم اسقف قبل القرن السادس عشر كما سنبينهُ في غير هذه المقالة وان كهنتهم كانوا من لبنان قبل العصرين الاخيرين كما نبَّه عليه صاحب التاريخ الكنائسي الذي مرَّ شيء من وصفهِ في السنة المنقضية من المشرق الانور فتبصَّر

٣ حكاية زقاق الاربعين (راجع المشرق ٥: ١٠٢٩)

ثم ان الاب ابراهيم حرفوش حكى حكاية زقاق الاربعين فروى « التقليد الشائع... ان الزقاق المسمَّى حتى اليوم في حلب زقاق الاربعين سُمّي كذلك من الاربعين عائلة مارونية التي اتت من شمالي لبنان ». (قلنا) لا ريب في ان هذا التقليد شائع في حلب الشهباء ولكن شيوعهُ ليس عند الموارنة فقط بل عند الروم ايضاً ويزعمون ان هذه العائلات ليست مارونيَّة فقط بل ملكيَّة ايضاً وليست من لبنان فقط بل من حمص وحماة ايضاً فيا ترى ايُّ هذه الاقوال الصادق وايها الكاذب. واماً مصدر هذا التقليد فيا زعموهُ فهو محبُّ الدين محمد بن الشحنة (١ صاحب تاريخ روضة المناظر في اخبار الاوائل والاواخر الذي اشتهر في زمن غزوة تيمرلنك الشهير. ولكنني قد راجعت تاريخَي ابن الشحنة المتوسط والصغير (٢ فلم ارهُ يذكر زقاق الاربعين بتةً ولا يذكر التقليد الحكيَّ عنهُ اصلاً وكيف يذكر امراً جرى بعدهُ بنحو تسعين سنة كما سترى في الفقرة التابعة. وغاية ما رأيتهُ في التاريخين المتوسط والصغير ان ابن الشحنة يذكر باب

١) حكى ابن الشحنة عن نفسهِ ان مولدهُ سنة ٧٤٩ ﻫ (اي سنة ١٣٤٨ م) وان عمرهُ في عهد تيمور (اي سنة ١٤٠٠ للميلاد) اربع وخمسون سنة

٢) رُوي ان ابن الشحنة ألَّف ثلاث تواريخ لحلب الكبير والوسط والصغير ويُعرَف اليوم منها الصغير والوسط واماً الكبير فهو مفقود. (راجع الصفحة ١٢٧ من تحف الانباء في تاريخ حلب الشهباء لينوف الجرماني)

الاربعين مرات ويقول انهُ يقع في القرب من باب النصر (١ وفي القرب من محلة الفرافرة. ثم يأتي في موضع آخر على سبب تسمية الباب بالاربعين فيقول: « اختلفوا في تسميته بهذا الاسم فقيل انهُ خرج منهُ مرةً اربعون الفاً فلم يعودوا فسُمي بذلك . . . وقيل لانهُ كان بالمسجد الذي داخلهُ اربعون من العبّاد وقيل اربعون محدثاً وقيل كان به اربعون شريفاً والى جانب اعلى المسجد للاشراف مقبرة ». انتهى نقلاً عن الباب السادس « في ذكر عدد ابواب حلب » من مختصر تاريخ ابن الشحنة

فترى ان البعض من اهل التقليد حكموا عن زقاق الاربعين ما حكاهُ ابن الشحنة عن باب الاربعين مع تغيير يسير يظهر لكل ذي عينين وفي عزوهم هذا التقليد اليه اعظم دليل على هذه المغالطة الواضحة لاهل البصيرة والبصائر

واني بعد هذا لا اقدم على القطع بسبب تسمية زقاق الاربعين (٢ لانهُ دون ذلك شبهات لا تكشفها الدلائل المعروفة كما سبق في سبب تسمية باب النصر. ولا يخفى ان قضية الحكم على نظائر هذه الاسباب من اشد القضايا مراساً واعسرها مطلباً في تاريخ حلب الشهباء لما يعترض في سبيلها من العقبات والشبهات التي يقف عندها المؤرخ حائراً متردداً دون ان يتهيأ لهُ الحكم فيها على وجه يأمن معهُ الوهم والخديعة وذلك لخفاء كثير من صحيح اخبار ذلك العهد وضياع معظم ما اختص به من الكتابات والمصنفات

هذا ما بدا لي في حكاية زقاق الاربعين فهلمَّ بنا نعمل الروية في عصرها. ليظهر فسادها تماماً

١) قال ابن شداد في تاريخهِ: ويلي باب الاربعين المقدَّم ذكرهُ من الجهة الشمال باب النصر وكان يُعرف قديماً بباب اليهود لان محال اليهود من داخلهِ ومقابرهم من خارجهِ فاستقبح الملك الظاهر وقوع هذا الاسم عليهِ فسماهُ بباب النصر. قال ابن الشحنة: والظاهر انهُ لا بدَّ لتخصيصهِ بهذا الاسم من سبب لكن لم يذكر ابن شدَّاد ولا ابن الخطيب بعدهُ لذلك من سبب والله تعالى اعلم

٢) تضاربت الاراء في سبب تسميتهِ بهذا الاسم فقيل لانهُ عُمر بازبعين عائله نصرانية وقيل لانهُ شُيد بهِ اربعون داراً في اوَّل الامر وقيل لانهُ كان يؤدّي اليه من باب الاربعين وقيل بل لانهُ كان بهِ كنيسة على اسم الاربعين شهيداً الى غير ذلك من الاقوال المتضاربة التي لا تتجاوز حدَّ الحدس والتخمين

٦ عصر الحكاية المزعومة (راجع المشرق ٥ : ١٠٤٠)

ثم ان حضرة الكاتب اتمّ الحكاية المذكورة بتحديد عصرها فقال انّ هذه الاربعين عائلة قدمت حلب في « أيام السلطان الغازي سليم وحلّوا في حلب لتعاطي التجارة »

لا مشاحّة في ان الذين يذهبون الى اثبات هذه الحكاية المزعومة يقولون ان هذا السلطان الفاتح لمّا دخل الشهباء سنة ٩٢٢ هـ (اي سنة ١٥١٦ م) ظافرًا بالغوري آخر ملوك الجراكسة بحلب ولم يجد فيها احدًا من النصارى أمر فاحضروا منهم اربعين عائلة من شمالي لبنان في وهم قوم او من حمص وحماة في زعم آخرين وهو كلام لا يخرج عن حدّ الاوهام كما ترى فيما يأتي:

اولًا ان ابن الشحنة الذي اسندوا اليه الحكاية الموهومة ولد سنة ١٣٤٨ للميلاد وادرك تيمرلنك سنة ١٤٠٠ وما من قائل انهُ عاش الى سنة ١٥١٦ اي مئة وثماني وستين سنة حتى يدرك السلطان سليمًا ويتكلم عمّا جرى في عهده. ثانيًا اني لا آخذ على حضرة الاب سوى ايراده هذه الحكاية التي جرت بعد سنة ١٥١٦ على علّاتها مع انهُ اعتمد على السند الماروني القائل بان الطائفة المارونية دخلت حلب سنة ١٤٨٩ اي قبل الحكاية المزعومة بنحو ثلاثين سنة. ثالثًا قد رأى حضرة الاب ان المطران انطونيوس كان مطران حلب والشام وجبة بشراي (١ في سنة ١٥٢٧ م فهل تكاثر الموارنة بحلب في احدى عشرة سنة الى حدّ ان يُقام عليهم اسقف. رابعًا قد روى حضرتهُ ان في مكتبة مار شليطا كتاب فرض الشمانين والناسخ يقول انهُ برسم كنيسة حلب لجماعتنا السريان سبط الموارنة الساكنين في جبل لبنان المبارك (٢ وهو مخطوط سنة ١٤٩٥ اي قبل عهد الحكاية المزعومة باحدى وعشرين سنة. خامسًا ان ليونار آبل (ابيلا) قاصد البابا غريغوريوس الرابع عشر سنة ١٥٨٢ يروي في كتاب رحلتهِ انهُ اجتمع بالبطريرك ميخائيل الحموي مرارًا في حلب وعرض عليهِ صورة ايمان

١) انظر ص ٨٩٧ من السنة الخامسة للمشرق الاغرّ
٢) راجع ص ٨٦٦ من سنة المشرق المذكورة

الكنيسة الرومانية فقبلها طوعاً واقرّ بها بين يديهِ ووقع عليها بختمهِ وامضائهِ بتمام المسرَّة والرضى وكان وقتئذٍ قد بلغ الثانين من العمر(١ . سادساً ان تاريخ الآباء... الفرنسيسيين يفيد عن دخولهم الى حلب وتسليمهم كنيستهم للموارنة وهي كنيسة القديس الياس المقدم ذكرها مراراً الى غير ذلك مما سبق عهد الحكاية الوهمي بازمان على ما تراهُ مبسوطاً في غير هذه المقالة . فهل يظنّ ظانّ بعد هذا ان ذاك التقليد راهن يعتمد عليهِ كاتب او مؤرخ

وناهيك ان ابن الشحنة الذي يعزون اليهِ ذاك التقليد المزعوم يأتي بذكر النصارى في عهدهِ مرَّات قال في مختصر تاريخهِ : « في بُراق (٢ من اعمال حلب معبد يزورهُ المسلمون والنصارى » وقال في موضع آخر: « في شمالي حلب عمود تنذر لهُ المسلمون والنصارى واليهود يقال ان تحتهُ قبر نبي » وقال ايضاً ما حرفهُ : « وحارة النصارى هي المعروفة بالجُديدة بالتصغير » . فهل يجوز بعد هذا ان يقال ان النصارى لم يكونوا بحلب قبل السلطان الغازي سليم الاوَّل

فالصحيح في توجيهِ ذاك التقليد ان طائفة من أسر النصارى قدمت من حمص وحماة ولبنان لاستيطان حلب عقيب انتصار السلطان سليم على الغوري لما كانت حصلت عليهِ النصرانيَّة من السلام والامان منذ تلك الدولة العليَّة كما هو مشهور فاخذ الأحفاد يتناقلون هذه الانباء والاعقاب يتوسعون في روايتها حتى جاءت كما رأيت آنفاً

وفي الختام ارجو العفو من الاب ابراهيم حرفوش واسأله ان لا يحسبني من المتطفلين في ما ابنتُهُ من الاوهام في تاريخ وطني العزيز واستزيدهُ من نشر مثل مقالته المفعمة بالفوائد التاريخيَّة التي تكشف القناع عن بعض آثار الشرق والسلام

(المشرق) قد اطَّلع حضرة الاب ابراهيم حرفوش على هذه المقالة فارسل لنا الملاحظات الآتية عليها قال :

١) انَّ قول حضرة المنتقد ان كنيسة السيّدة التي ذكرها العلّامة الدويهي هي للسريان

---

١) طالع ص ٥ من السنة الثالثة من مجلة الشرق المسيحي او ص ١٩٨ من كتاب خزائن الكتب في دمشق وضواحيها لجناب الاديب حبيب افندي الزيَّات

٢) قال ياقوت بُراق من قرى حلب بينهما نحو فرسخ

او للارمن لا نراهُ مبيِّناً على حجَّة راهنة لان مدار كلام الدويهي على أُمور طائفتهِ لا على طائفة اخرى ولو اراد السريانَ او الارمن لصرَّح عن الامر. وكذلك نتعجَّب من حضرتهِ اذ يقول انَّ سجلَّ الطائفة لا يذكر هذه الكنيسة وهو مع ذلك يخطِّئ السِّجلَّ المذكور في امور اخرى. وما ادرانا انَّ ذكر هذه الكنيسة ما ورد في سجلٍّ اقدم عهدًا التهمهُ الحريق كما التهم سجلات بقيَّة الطوائف

٣) كيف يثبت حضرتهُ ان جامع السجل هو المطران جرمانوس حوًّا حقيقةً

٣) كيف يرمي حضرتهُ كاتب السجل بالغلط وقد اعتمد عليهِ فيما اوردهُ من الافادات بشأن تاريخ اساقفة حلب في كرَّاستهِ المتضمّنة النهانيَ المرفوعة لسيادة المطران يوسف دياب الجزيلي الاحترام. ثمَّ من هم الاساقفة الذين سبقوا جبرائيل البلوزاني على كرسي حلب ؟

٤) ما لحضرتهِ لم يذكر الاثر الذي في يديهِ مثبتًا وجود الموارنة في القرن الثالث عشر فانَّ ابرادهُ لمن شأنهِ ان يكشف القناع عن تاريخ طائفتنا في الشهباء.

٥) قولنا في المطران انطونيوس انهُ كان مطرانًا على حلب والشام وجبَّة بشرَّاي ليس رأينا الشخصي بل هو للمطران انطونيوس نفسهِ كما تراهُ في الكتابة التي علَّقها بيدهِ على الكتاب الخامس الوارد ذكرهُ في المشرق (٥ : ٨٩٧). اما اعتراض حضرة الاب منش بانهُ يبعد عن الصواب انَّ الموارنة كثروا بعدَّة ١١ سنة الى حدّ ان يقام لهم اسقف فالجواب انَّ ذلك لم يكن نظرًا لكثرة عددهم بل لبعد مزارهم ليتمكّن الاسقف من تفقّد شؤونهم لاسيما في ذلك العهد اذ كان الاساقفة يقيمون بجوار السيّد البطريرك يوجّههم حيثما شاء بصفة نوَّاب. فلمَّا عهد البطريرك الى المطران انطونيوس بزيارة الشام وحلب وجبَّة بشرَّاي دعا ذاتهُ مطرانها. وهذه العادة في طائفتنا استمرَّت الى زمن المجمع اللبناني الذي تمم الابرشيَّات وحدَّدها كما ترى في اعماله. فامكن اذن المطران انطونيوس ان يزور الموارنة بعد حلولهم حلب باحدى عشرة سنة ليتفقدهم. ويُستدلّ من السجل نفسهِ على انَّ اساقفة حلب الاوَّلين قبل جرمانوس فرحات كانوا يسكنون لبنان ويزورون رعاياهم حينًا بعد حين

٦) يؤخذ علينا انَّا استندنا الى السجلّ والتقليد في شأن زقاق الاربعين مع ان الفرق بين الحادثين ثلاثون سنة لانَّ الغرض تقريب العهد في امر تاريخ حلول الطائفة في حلب اعني حلولهم في القرن الخامس عشر سندًا الى الرواية والسجل وان كان بينهما بعض الفرق والقصد من ذلك انَّ الاربعين العائلة التي حلَّت في زقاق الاربعين زادت الموارنة شهرةً واسمًا. على اني لا انكر الغموض في هذه الحادثة وان امكن حضرة الاب منش ان يبيّن بوجهٍ صريحٍ وجود الموارنة في حلب في الجيل الثالث عشر اذعنت لقولهِ بطيب الخاطر. وعلى كلّ حالٍ اني اشكرهُ على ما يبذلهُ من التنقير في هذه الحادثة التاريخيَّة واتمنَّى ان يهتدي الى ما يكشف بهِ القناع عنها تمامًا

(المشرق) مما استنسخهُ حضرة الاب انطون رَبَّاط في مكاتب باريس مذكَّرة للسفير الفرنسوي دي جرردين (de Girardin) ورد فيها بعض فوائد عن كنيسة الموارنة في حلب (Bibl. Nat. Ms fr. 7162) نقال في تاريخ سنة ١٦٨٦ انَّ المرسل اليسوعي الاب ديشان لحيه للطائفة المارونية سأله ان تُقدَّم عريضة للباب العالي يُطلب بها توسيع كنيسة الموارنة في حلب.

وممّا جاء في هذه العريضة ما تعريبهُ: «انّ الموارنة كانوا قبل نحو خمسين سنة عدداً قليلاً جدًّا فأعطيت لهم لصلاتهم غرفة قريبة من كنيسة الارمن لا يدخلها الّا ٤٠ او ٥٠ نفساً. ثم زاد عددهم مؤخّراً بمجيء عائلات كثيرة من لبنان استوطنت حلب. . . حتّى اربى على ٤٠٠٠. . . وعليهِ فيطلبون ان يوسّعوا هذه الغرفة بان يضيفوا اليها مخزناً لا يحجزهُ عنها الّا حائط بفتح باب يؤدي الى دار تكون كمدخل للكنيسة . . .». فلعلّ الابوين الفاضلين ابراهيم حرفوش وجرجس منش يجدان في هذه العريضة التي كتبها موارنة حلب سنة ١٦٨٦ فائدة. وكان الكافليار دارڤيو (Ch. d'Arvieux) كتب في رسالة خطيّة تاريخها سنة ١٦٧٥ انّ عدد الموارنة في حلب ١٥٠٠ والروم ٦٠٠٠ والسريان ٤٠٠٠ والارمن ٥٠٠٠

الأثير او الفلك العالي

لحضرة الاب فردريك دي بلبناي اليسوعي

لا يستطيع احد ان يطالع كتاباً علميًّا دون ان يجد فيهِ ذكر الاثير مكرَّراً. وليس كلامنا هنا عن ذلك السائل الطيّار السريع الالتهاب الذي ينال بالاستقطار ويستعمل في تنبيج المرضى وكثير من اعمال الجراحة او الطب وانّما المقصود سائل آخر غاية في اللطف يُفترض وجودهُ وان لم يقع تحت الحواسّ وهو ينفذ في كلّ الاجسام وفي كلّ خلاء وبتموّجه تنفعل فينا العوامل الطبيعيّة من النور والحرارة والكهرباء.

وقد تأوّل فيهِ القدماء التأويلات العديدة ودعاهُ اليونان بالاثير العالي او الاثير المنير وكانوا يزعمون انّ منهُ مادّة النار كما انّ جوهرهُ احد مكوّنات العالم. امّا المحدثون فاصلحوا كثيراً من مزاعم الاقدمين في هذا الصدد وان لم يتّفقوا على اوصافهِ

ولذلك رأينا ان نبحث عمّا كتبهُ العلماء في هذا الشأن ونستخلص ما تقرّر في حق هذا العنصر الغريب فنعرف شيئاً من خواصهِ ومميّزاتهِ. ولمّا كانت العلوم الطبيعيّة تبني مباحثها على امور وضعيّة فلنبدأ بالمرئيّات راقين من المعاول الى العلّة

١ حقيقة الأثير

انهُ لبديهيٌّ انّ الكواكب ترسل الينا باشعّتها ولولا ذلك لما شعرنا بنورها. والحال انّ هذا النور قبل ان ينفذ في جوّنا لا بدّ لهُ ان يجتاز مسافات لا تُحصى ليس فيها غير الخلاء. والدليل على ذلك ان جوّنا هذا تنقص كثافتهُ على قدر ما نرقى في طبقاته العليا. وهو ينتهي حيثما يبطل فعل ثقل الارض اعني عند الحدود التي لم تعدُ الارض

كافية لجذب دقائقها الجوية. فان كان اذن نور الكواكب وحرارة الشمس يبلغان حتى كرتنا لزم القول ان كليهما ينتشران في الخلاء. وانا شاهد حتى على ذلك في مقياس الحرارة اذا جعلته في وسط آلة التفريغ ثم افرغت منها الهواء فان الخلاء لا يمنع نظر المقياس وكذلك الحرارة الخارجية تفعل في القياس كانه في الجو

وليس الحرارة والنور وحدهما يتصلان بنا مارين بالخلاء لكن الجاذبية ايضاً فان الافلاك كلها يجذب بعضها بعضاً على حسب قانون معلوم سبق الى اكتشافه نيوتن الشهير فقال: «ان الاجسام تتجاذب بالنسبة الى اجرامها وبعكس مربع مسافاتها»: ولا يخل بهذه القاعدة وقوع الخلاء بين الاجسام

فهذه نتائج اكيدة مقررة لا يمكن نكرانها ولكنها تستدعي شرحاً يرتاح اليه العقل. فان استفتينا العلماء وجدناهم صوتاً واحداً على ان في هذه المسافات الخالية وسيطاً لنقل النور والحرارة والكهرباء والجاذبية. والسبب ان الاجسام لا يمكنها ان تعمل بعضها في البعض ما لم يوصل بينها واصل كما يثبت ذلك الفلاسفة. والعمل عن بعد بلا متوسط من المستحيلات

ولكن ترى ما هي حقيقة هذا الوسيط أهو عرض ام جوهر؟ ذهب البعض الى انه عرض اي انه كتموج او قوة وما اشبه ذلك. لكن هذا المذهب باطل اذ لا يقوم العرض طبيعياً الا في الجوهر. وكذلك ليس من تموج او قوة الا بعنصر متموج او بذي قوة. فلا ندحة اذن من القول بان هذا الوسيط جوهر حقيقي

وان سألت عن كنه هذا الجوهر وجدت العلماء على رأيين يدعى احدهما راي التبعث (émission) والآخر راي الاثير فالذين يرتأون الراي الاول وهو راي نيوتن يزعمون ان هذا الجوهر يتركب من دقائق غاية في اللطافة تصدر بها الاجرام العلوية فتملأ بها الفضاء. اما اصحاب الراي الآخر فيرون ان الخلاء نفسه يتركب من مادة ثابتة تملأ كل الفضاء العلوي وبها تمر التموجات النورية التي تنبعث من الاجرام الفلكية وهذه المادة هي الأثير وقد تغلب اليوم هذا الراي الثاني يتبعه اكثر العلماء وذلك لاسباب نذكر بعضها:

الاول ان مذهب نيوتن يفسر انتشار النور من الافلاك الى ارضنا لكنه لا يعلل الجاذبية العمومية بتة

الثاني انَّ هذه الدقائق المشعَّة لو انبعثت من الاجسام المنيرة لأثَّرت فيها جاذبيَّة الافلاك التي تمرُّ في وسطها فلا يدرك العقل كيف تأتينا على خطٍّ مستقيم وبسرعة واحدة مع اختلاف العوامل التي تتجاذبها

الثالث انهُ لو صحَّ راي القائلين بهذا التبعُّث لكانت حرارة الاشعَّة تنمو على قدر ارتفاعنا في الجوّ. والامر على عكس ذلك كما يشهد الراقون بالمناطيد الى العلاء. فانَّهم يشعرون ببرد قارس يخدّر اعضاءهم ويزداد كلَّما ارتفعوا ويرون السماء فوق رؤوسهم حالكة كما في الليل

الرابع انَّ اصحاب التبعُّث كانوا زعموا انهُ لو قيست سرعة مرور الشعاع المنير في الماء لوُجدت اخفّ من سرعة مروره في الجوّ. وكان الرأي المخالف يرى عكس ذلك. فلمَّا أُجري هذا الاختبار في الاعماق البحريَّة تقرَّر انَّ سرعة النور في الماء ثلاثة ارباع سرعتهِ في الهواء فبطل اذن زعم اهل الانبعاث

خامسًا قد اثبت العلاَّمة فرنيل (Fresnel) انَّ للنور تموُّجات كما للصوت. وهذه التموُّجات ترتفع وتنخفض كما ترى في حلقات الماء لو القيتَ فيه حجرًا. فاذا ارسلتَ على حاجزٍ اشعَّة مصباحين منيرين بنورٍ متساوٍ رأيت على الحاجز شققًا منيرةً جدًّا وشققًا مظلمةً سوداء. فالشقق المنيرة تصدر من التقاء موجتين نوريَّتين متشابهتين اي مرتفعتين او منخفضتين امَّا الشقق السوداء فتنتج من التقاء موجتين متضادَّتين مرتفعة فمنخفضة لانَّ الواحدة تبطل الأُخرى فتحصل الظلمة. كما يجري في الماء لو ادركتْ موجة مرتفعة موجةً منخفضة فترى الماء ساكنًا. فهذا الامتحان يُبطل زعم نيوتن تمامًا في مذهب الانبعاث اذ لا يُفهم كيف انَّ زيادة النور تُنتج ظلمةً. وهو بخلاف ذلك يؤيد مذهب القائلين بالاثير

هذه الاسباب التي حملت العلماء على اهمال مذهب الإشعاع والقول بانَّ الاثير يملأُ كلَّ المسافات الواقعة بين الافلاك

٣ خواص الاثير

ان كان وجود الاثير امرًا ثابتًا في عالم العلم. ليس تعريف خواصّه كذلك فانَّ العلماء لا يزالون مرتابين في وصفها وانَّما يرجحون فقط هذه الخواص ونحن نتأَّرهم في ذلك

١ (انتشاره العامّ) الاثير مُنتشر في كلّ مكان بين دقائق الاجساد وخارجًا

عنها . ولو افرغت حُجرة من الهواء تماماً لبقي فيها الاثير لا تعمل فيه آلات التفريغ . ولا يمكنّا ان نشعر بهذا العنصر اللطيف اذ ليس بيدنا مقياس نقيسهُ بهِ او نعرضهُ عليه

ولعلَّك تعترض قائلًا فان كان الامر كذلك ما لبعض الاجسام تكون كثيفة لا ينفذ فيها النور ولا الحرارة ولا الكهرباء . أفما كان ينبغي ان تعمل هذه العوامل في كل الاجساد والاثير داخل في دقائقها ؟

نجيب انَّ كثافة الاجساد ليست مطلقة وانَّما تُحسب كذلك بالنسبة الى غيرها . أفلا ترى مثلًا عدَّة موادَّ كانت معدودة بين الاجساد التي يُستشفُّ النور من ورائها وهي اليوم تُرى شفَّافة تخترقها اشعَّة رُنتجن . وكذا يُقال عن بقيَّة الاجسام الكثيفة فانَّ كثافتها عرضيَّة والدليل على ذلك انَّ المعادن والحجارة اذا طُرقت ورُقّقت رُؤي من ورائها النور وامكن درس تركيبها بالمجهر . وان بحثت عن سبب كثافتها فالمرجح انَّ المعادن تمتص الاشعَّة النوريَّة الواقعة عليها فتبطل فعلها . امَّا الاحجار فلأنَّها تتركَّب من عدَّة اجسام متباورة ودقائق مختلفة الهيئة فاذا وقعت عليها الاشعَّة النوريَّة انكسرت تموُّجاتها فتبدَّدت . كما لو اتخذت موشوراً من زجاج كان جانبان من جوانبهِ على شكل زاوية قائمة فاذا وقع شعاع من النور على احدهما بخط مستقيم نفذ الى الجانب الآخر دون انحراف لكنَّهُ ينعكس انعكاساً تامّاً بالنسبة الى الجانب الثالث اعني الى وَتر هذه الزاوية القائمة فلا ينفذ منهُ ولا يُرى البتَّة بحيث يصحّ القول انَّ هذا الجانب عرض لهُ كثافة تامَّة . واذا افترضت جسماً يتركَّب من موشورات عديدة على هذه الصورة تضعضع نورها منعكساً فلا يُبصَر اصلًا . وعليهِ فان الكثافة ليست بمانع يصدُّ الاثير في باطن الاجساد الُمصمتة نفسها

وان سألت ما رأْينا في الكهرباء . أيوجد اجسام كثيفة بالنسبة اليها اعني لا تنفذ فيها الكهرباء . نقول ان كان الكلام عن الكهربائيَّة العاديَّة الشائعة فانهُ مقرَّر انَّها لا تنفذ في كلّ الاجسام . ولكن ليس الامر صحيحاً في كلّ ضروب الكهرباء .

ومسير الكهرباء على طريقتين منها ما يتبع الاسلاك المتكهربة ومنها ما ينتشر على هيئة التموُّجات كما ثبت مؤخرًا باكتشاف العلاَّمة هِرتس ولذلك دُعي هذا الصنف من الكهرباء باسم التموُّجات الهرتسيَّة ويراد بها الكهرباء المشعَّة . وهي تنفذ في الاجسام التي لا تعمل بها الكهرباء العاديَّة وعلى خلاف ذلك الاجسام التي

تنفذها الكهرباء العادية لا تخترق الكهرباء المشعَّة . فهاتان الكهربائيتان اذن على طرفي نقيض

٢ (لطافة الاثير) لا يشكُّ احد من العلماء في انَّ الاثير لا يقع تحت الحواس . ولكن هل هو لطيف خالٍ من كل كثافة ؟ او ليست لطافتهُ موهومة لخلوّنا من كل مقياس نقيس بهِ كثافتهُ وذلك لدقَّة اجزائهِ التي لا تدركها حواسنا ولا تشعر بها آلاتنا القياسيَّة . تلك مسألة عويصة لم يحكم العلماء فيها الحكم الفصل . وقد ارتأى اللورد كلفين (Kelvin) انَّ للاثير كثافة اذا قيست بكثافة الماء كانت بنسبة $\frac{١}{١٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠}$. وقد وافقهُ على هذا الرأي العلَّامة فرينل لمَّا ذهب الى انَّ الاجرام المتحركة تجذب بسيرها قسماً من الاثير . وقد نكر غيرهما من العلماء هذه الكثافة . ويبنون نكرانهم على انهُ لو كان للاثير ثقلًا نوعيًّا لصحَّت فيهِ نواميس الثقل وكان ثقلهُ مختلفًا على اختلاف طبقاتهِ فتنحرف بسبب ذلك اشعَّة نور الكواكب ويتأجَّل سيرها . وعلى كل حال فان كان الاثير ذا كثافة فانَّ كثافتهُ في منتهى القلَّة

٣ (عدم انضغاط الاثير) ومن غريب خواصّ الاثير انهُ مع لطافتهِ لا يكاد يقبل الانضغاط . فكيف التوفيق بين هاتين الخاصَّتين

امَّا كونهُ لطيفًا فيعرف من الرجوم والنيازك التي تقع على الارض فانها اذا بلغت جوَّنا التهبت باحتكاكها وذاب من سطحها نحو ملّمتر . فاذا فحصنا داخلها وجدناهُ سالمًا وذلك دليل على انَّها لم تبلغ جوَّنا متَّقدة وانَّ سبب اتقادها ما تلقاهُ من الضغط في جوّنا . فاذن لم تجد ضغطًا فوق جوّنا والاثير غاية في اللطافة

امَّا كون الاثير لا يقبل الانضغاط فيظهر من انتشار النور الذي يتموَّج بفعل الاجسام المنيرة . لأنهُ لا يمكن جسمًا ان يتموَّج ويهتزّ الَّا اذا صَلُبَ وتوتَّر وامتنع من الانضغاط لانَّ التموُّج والاهتزاز لا يتمَّان الَّا بانتقال الحركة من ذرَّة الى اخرى . ولو ضعفت الذرَّة الاولى عن قبول الحركة لتلاشت معها ايضًا القوَّة الاصليَّة بعد قليل . وبعكس ذلك اذا كانت الذرَّة الاولى صلبة لا تنضغط انتقلت القوَّة منها الى الثانية فالثالثة حتى حدود الجسم الاخيرة بسرعة دون فقد شيء من القوَّة الباعثة . فالصلابة اذن هي الشرط اللازب لنقل هذه الحركة وسرعتها وبقدر ما تزيد هذه الصلابة وقلَّة

الانضغاط تزيد ايضاً السرعة وتُحفظ القوَّة الاصليَّة

مثال ذلك ان سرعة انتشار الصوت في الماء اربعة اضعاف سرعته في الهواء لقلَّة انضغاط الماء بالنسبة الى الهواء . وهو ينتشر في الحديد المذاب اكثر من انتشاره في الماء بمرَّتين ونصف . فترى من هذه الحسابات كم هي صلابة الاثير وقلَّة انضغاطه لانَّ النور ينتشر فيه بالثانية على مسافة ٣٠٠,٠٠٠ كيلومتر

ولكي تفهم الامر بنوع حسّي افترض انبوبة مملوءة ماء تمتدُّ من اوربَّة الى اميركة فاذا حدث في راس الانبوبة ركز شُعر به في الرأس الآخر بعد ثلاثة ارباع الساعة . امَّا اذا كانت الانبوبة مملوءة اثيرًا فشُعر بالصوت بعد ١/١٠٠٠ من الثانية . فلو كان الجسم لا يقبل الضغط بتَّة لشُعر بهذا الصوت للحال دون تباطؤ . فترى انَّ الاثير لا يكاد يقبل الضغط

ولسائل ان يسأل وكيف يمكن جوهرًا ذا لطافة في الغاية ان يتَّصف بمثل هذه الصلابة ؟

لنا في بيان هذا الامر عدَّة آراء يعرضها ارباب الطبيعة : الرأي (الاول) رأي القائلين بأن الاثير صلبٌ في ذاته غير قابل الضغط وانَّ حركته عرضيَّة . وهم يتمثَّلون بمثل قرص من القير البُرغندي الشديد الصلابة اذا جُعل عليه رصاصة اثَّر فيه ثقلها الى ان تنفذه وتخرقهُ . ويذكرون ايضاً مثال قطعة كبيرة من جليد اذا مُدَّ فوقها سلك حديد يضغطها نفذ فيها السلك شيئاً فشيئاً دون ان يُبقي اثرًا للحزّ . ومن المعلوم انَّ الجليد لا يقبل الضغط ويكسر قنابل الفولاذ . فيستنتجون من هذين المثلين انهُ يمكن وجود جوهر لا يقبل الانضغاط في ذاته تخترقهُ اجساد أُخرى اذا تمَّت بعض شروط معلومة . وكذلك الاثير

والراي (الثاني) اقرب الى الصواب وهو عكس الراي الاوَّل يقول اصحابهُ انَّ الاثير لطيفٌ طبعاً وصلبٌ عرَضاً . وقد اثبت اللورد كلفين انَّ المائع اذا ما حُرِّك بحركة سريعة صارت خواصُّهُ كخواصّ الاجسام الصلبة . وهكذا يشرح العلماء فعل الزوبعة والإعصار فانَّ الهواء اللطيف الطبع يتكيَّف في حركته بكيفيَّات الصلابة حتى انهُ يقوى على هدم البيوت واقتلاع الاشجار . وكذلك الماء فانهُ قليل الفعل اذا كان راكدًا واذا طغى وماج اخرب السدود وهدم الاسوار . وامثال ذلك كثيرة

وان قيل لاصحاب هذا الراي انَّ زعمكم يصح في الموانع التي تتحرّك ولكن لا حركة للأثير. يجيبون انَّ الاثير يخلو من حركة الخطّ الموازي للشعاع المنير لكنَّهُ لا يخلو من حركة الخطّ العمودي كالفلّينة فوق الماء المتموّج فانَّها تتحرّك في مكانهـا وان لم تنتقل من محلّ الى آخر. وهذه الحركة في الاثير كافية لبيان ما فيه من الصلابة رغمًا عن لطافته

وقد ارتأى غيرهم رأيًا (ثالثًا) وهو رأي كثير من الانكليز يقولون انَّ الاثير يتركّب من دقائق صلبة في ذاتها لكنَّها مرنة في روابطهـا فيكون في بعض الوجوه صلبًا غير قابل الانضغاط وفي وجوه اخرى منضغطًا لطيفًا. وهو رأي ضعيف يستلزم وجود اثير آخر ليبيّن ارتباط هذه الدقائق الاثيريّة

٤ (وحدة الاثير) هذه الخواصّ العجيبة التي ذكرناها للاثير ليست بشيء اذا قابلناها بخاصّة رابعة اعني وحدة الاثير. ويراد بهذه الوحدة على ما قال مكسويل الطبيعيّ الشهير (Maxwell) انَّ الحرارة والنور والكهرباء والقوّة المغنطسيّة كلّها جوهر واحد ومعلولات علّة واحدة وهي الاثير فالاثير باختلاف طول تموّجاته واختلاف سرعتها يسبّب هذه المظاهر الطبيعيّة

والحقّ يقال انَّ مذهب مكسويل ينطبق على نواميس الخالق الذي يُحدث اعظم المفاعيل بوسائط غاية في البساطة. وكما انَّ الطبيعيين اثبتوا بعد الابحاث الطويلة وحدة الحرارة والنور ووحدة المغنطيسيّة والكهرباء هكذا يرجّح مكسويل انَّ هذه العوامل الطبيعيّة كلها ترجع الى مصدر واحد جعلهُ الخالق كالعامل الاكبر لكل هذه العوامل الثانويّة

ولعلَّ القارئ يسأل هنا وهل ثبت قول مكسويل هذا بالاختبار؟ اجبنا انهُ حتى الآن لم يتّصل العلماء الى بيانهِ. لكنَّ اموراً كثيرة كان سبق مكسويل ورجّح صحّتها بالحدس والظنّ تحقّقت من بعدهِ بالاكتشافات العجيبة التي توصّل اليها آخرًا العلماء المشاهير كهرتس وبرنلي (Branly) ومركوني (Marconi) واثبتوها بالتجربة

وممّا وقفوا عليه قياس طول التموّج الكهربائي المشعّ اعني المسافة التي بين نقطتين تحتوي احداها معظم ارتفاع التموّج وهو يدعى عقدةً والاخرى منتهى انخفاضهـا ويُدعى جوفًا. واوّل من توفّق الى ذلك العالمان دي لا ريف (de la Rive) وسرازين

(Sarasin) في جنيفا فكانت نتيجة اختباراتهما انَّ طول التموُّج يبلغ ستَّة امتار. وكان العلماء حسبوا سابقًا انَّ النور يقطع في الثانية ٣٠٠,٠٠٠ كيلومتر او ٣,٠٠٠,٠٠٠ متر. فلمَّا عرضوا الكهرباء المشعَّة على قياس اهتزازات النور وجدوا ان الكهرباء تجري في ذلك جري النور وانَّ اهتزازات امواجها ٥٠,٠٠٠,٠٠٠ في الثانية وهذا هو الواقع في النور باختلاف قليل فاستنتجوا انَّ عامليهما واحد

فهذا الاكتشاف المهمّ الذي أدَّى بالعلماء الى ان يوحّدوا بين الكهرباء والنور ممَّا يؤيد مذهب مكسويل بخصوص الاثير وتعليله لكلّ هذه العوامل الطبيعيَّة. واليوم تراهم يبحثون عن آلة تنشئ في الثانية ٤٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ من الاهتزازات تمكّنهم من الانارة الاصطناعيَّة. وقد وضع واحدٌ منهم اسمهُ بوز (Bose) آلةً تُصدر في الثانية ٥٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ هزة. واذا مكّنتهم المساعي من ايجاد مثل هذه الآلة استعاضوا طرائق الانارة الجارية اليوم بطرائق أُخرى غاية في السذاجة والاقتصاد فينظمون هذه الاهتزازات كما يشاؤون وينشئون تارةً نورًا بلا حرارة وتارةً حرارة بلا نور واخرى حرارة بلا عوامل كيمويَّة الى غير ذلك من النتائج الغريبة التي تجعل النور طوع يد الانسان يتصرَّف فيه على مقتضى ارادته وكفاك رجل واحد لينير مدينةً كاملة بنور ساطع

فهذا بعض ما ينتج عن مذهب مكسويل بخصوص وحدة الاثير والنور والحرارة والكهرباء. واذا ما تحقَّقت آمال العلماء وخرجت الى حيّز العمل سوف يرى الناس من عجائب الاختراعات ما ينسيهم الاكتشافات الغريبة التي افتخر بها القرن السابق ويشعرهم بقدرة الخالق وحكمته وهو الذي اودع عالمنا مثل هذه القوى الدفينة وارشد العقول الى الوقوف عليها بتوالي الاعصار. سبحانهُ لا اله غيرهُ

يمين العلي

رواية تاريخية للاب س. ت اليسوعيّ (تابع)

الفصل السادس

جُبَيل

كان الليل مادًّا رواقهُ المدلهمّ. الَّا انَّهُ ليل البلاد الشاميَّة تشعُّ فيهِ الكواكب

بانوارها الساطعة وتنبعث فيه الحدائق المجاورة للساحل من الروائح العطرة. بينا ترى القمر في كبد السما. يخفف باشعّته الفضيَّة اكفهرار الليل ويجلّل بضيائهِ قمم لبنان ومنعطفهُ الى سبج البحار اللازورديَّة

ففي تلك الليلة كان قومٌ سائرين في الطريق الرومانيَّة البيضاء التي تسير من بيروت الى طرابلس لا يُظلّها شي. من الاشجار سوى بعض شجر الزيتون العاتية او مخافر جند تُرى حيناً بعد حين على مقربة من الطريق لحراستها. امَّا القوم فكانوا يحملون على مناكبهم محفَّة يتقدَّمها اربعة من العبيد في ايديهم مشاعل لانارة الطريق

وكان الحملة يمشون بخفَّة كأنَّ محفَّتهم لا تثقل على اكتافهم وكأنَّهم لم يحملوا الَّا وَقرًا خفيفًا لا يبهظ عليهم حمله. ولو عاينتهم في سيرهم لرأيتهم يرفعون على الراحات حملهم إشعارًا بخفَّتهِ. وكان احدهم يوقع باغنيَّة يتغنَّى بها على خطوات رصفائه ليمشوا مشيًا منتظمًا. اذ اشار اليه رفقاؤهُ قائلين:

صَهْ فانَّ معلَّمتنا ترقد وحقَّ رأسها انها غاية في الحاجة الى النوم بعد ما ألمَّ بها من الأحزان

فسكت العبد. ولم يعد يُسمع في جوف الليل سوى صوت اقدام الماشين مع نُباح الكلاب التي كانت تعوي لضوء القمر في القرى الواقعة على حفّ لبنان

وبينا هم في سيرهم اذ خرج من وراء اسجاف المحفَّة انين ينبي بقلب اقرحهُ الحزن. وكان الانين متصاعدًا من صدر يهوديت ابنة صموئيل اذ هي كانت المحمولة في المحفَّة. ثم سمعها الحملة تقول في اثناء كابوس دهمها في نومها:

« لا لا ناشدتُك الله... أقسم لك باني لم افعل... عليّ... دَعني يا جلّاد... »

قالت هذا ثمَّ سكتت واخذت تُعول عويلًا مرًّا في اثنائهِ كان يُسمع لها بعض الفاظ متقطِّعة: « يا راسيوس... ابتاهُ... مسكين ابي وايّ مسكين »

قال سلوانس العبد الامين الذي وثقت بهِ وائتمنتهُ على حياتها وكان واقفًا على عين المحفَّة: « انها تفكر في ابيها ». ثم رفع الستار الذي كان يحجبها ومسَّ يدها ففزعت من النوم مذعورةً ورفعت برأسها قائلة: « اين نحن ». ثم نظرت واحسَّت بظلمة الليل وشعرت بندى البحر فعرفت حالها واخذت منديلها لتنشف دموعها ثم اردفت: آه نحن في الطريق... اني كنتُ نسيتُ في نومي كلَّ ما عرض لي. آه

كم تألّمتُ... ولكن قل يا سلوانس الى اين وصلنا ؟

— ثقي يا سيدتي انّا قد بلغنا نهر ليكوس (نهر الكلاب)

قال هذا وامر العبيد بان يكفّوا برهة عن السير. فاخرجت يهوديت رأسها لترى المكان فاذا هو مضيقٌ مرهبٌ تقرّ تكتنفهُ الجبال يُسمع في وسطهِ خرير المياه الجارية. فارتعدت فرائصها وتخوّفت ان يكون المكان مأوى للّصوص. ثمَّ سألت وهي لا تعي لنفسها خوفاً :

كم هي الساعة... ايلوح الصباح قريباً ؟

— قد اخذت ديكة القرى تصيح فلا يمرّ علينا ساعتان او ثلاث ساعات حتى نرى الفجر متنفساً

ثم عاد العبيد فساروا بخطوات مسرعة دون خوفٍ ان يُفيقوا سيّدتهم من رقادها. امّا يهوديت فازالت من امام وجهها سجوف المحفّة لتستنشق نسيم البحر الذي كان ينعش صدرها و يخمد هيجان اعصابها. وكان الالم قد اضنى قواها وهدَّ حيلها. فاخذت تفكّر في ما اصابها في يومها السابق من الاكدار التي رنّقت كأس فرحها وقطعت حبل سعادتها. وهذه الاحزان كانت استولت على قلبها بغتةً دون انتظار. امّا سببها فحديثٌ جرى لها مع اخيها يوسف بدّل افراحها بالاتراح وجعلها اشقى الناس بعد ان كانت تؤمل بالمسرّات القريبة

*

كانت اصيل يوم امس جالسةً في غرفتها مستندةً الى مرفقةٍ وبازائها اخوها يوسف يسعى بتسليتها عن غيبة ابيها وتأخّرهِ عن الرجوع. ويذكّرها بأنهُ ارسل ساعياً يأتيها بالاخبار الصادقة ثمَّ يؤكّد لها انَّ حصار مدينة اورشليم لم يبتدئ بعد فابوها صموئيل يمكنهُ الفرار قبل ان تُقفل ابواب المدينة المقدّسة

الّا انها هي لم تزل مضطربةً الى ان قالت لاخيها دون تروٍّ: اني خائفة على حياة ابي واعرف انَّ الرومان اذا قصدوا شيئاً لا ينكصون على الاعقاب ولا بُدَّ لهم ان يفتحوا عاصمة مملكة اليهود بوقتٍ قريب فاذا كان ابي لم يفرّ بعد فالويل لهُ...

قالت هذا بتوجّع جاش بهِ صدر اخيها وفار فائرهُ لانهُ تذكّر التفات الضابط داسيوس الى اختهِ عند مرورهِ على باب الدار فقال مغضباً : « الرومان ! اصدقاؤكِ

الرومان ! اراكِ تتيمّنين بقدومهم وتتفاءلين بنصرتهم . او تظنين اني لم أدرك بعواطفك او لم اشعر باضطراب جسمكِ قبل يومين لمّا مرَّ الضابط راسيوس بازاء عينكِ . . . اني لواقف على خفايا قلبكِ ولن تخدعيني البتّة . فكل مظاهرات الخوف على حياة والدنا وبكاءكِ عليه لَكذبٌ وغشٌ فانَّ كلَّ شواعر قلبكِ متّجهة الى هذا الضابط الروماني اللعين . . . فماذا يهمّكِ امر المدينة المقدّسة او ان يُقتل والدنا وتفنى أمّتنا فانَّ غاية ما تشتهين ان تحظي باحد انذال الرومـان . . . فاعلمي انّكِ استخرجتِ اضغـان صدري لكنَّ احتقاري لكِ اعظم من بُغضي . . . ولا بُدَّ لي ان أدرك بثاري منكِ يوماً وأنتصر لشعبنا عليكِ . . . »

قال هذا ثم اقسم يميناً محرّجةً ان : « لا ابرح الآن جواركِ وابقى هنا لأترصَّد هذا الروماني الذي مال اليه قلبكِ فاذا ما عاد سالمًا غمستُ هذا الخنجر في قلبـه . . . فتتمّ بموته افراحكِ ويشفى غليل محبّتكِ للرومان »

ما كاد يوسف ينتهي من هذا القول حتى خرج من الدار وترك اختـهُ في الحيرة والذعر . وكانت اذ سمعت بكلام اخيهـا رأت نفسها في حلم فلم تَدرِ ما تجيب لما ساقها به من الكلام المرّ . فلمّا خرج أجهشت بالبكاء وتدفّقت عبراتها كالسيول . . . « كيف يا تُرى تجاسر اخوها بان يشكّ في حبها لوالدها . . . امّا هو أفكان لهُ ان يجرح قلبها بكلام احدّ من النصال فيتهدّدها ويتهدَّد من كانت عوّلت عليه لسعادة حياتها . . . كلّا لا تريد مطلقًا ان تجتمع باخيها ثانية . . . وان كان يوسف يبقى في الدار الوالديّة فانّها هي لا تُقيم فيه ابد الابد . . . بل تهرب في الليلة ذاتها . . . »

فكّرت في هذا ثم دعت بدروتيا . فدخلت أمّتُها مسرعةً واخذها الاندهاش لمّا رأت سيّدتهـا كادت تغيب عن رشدها . فاخبرتهـا بهوديت بما جرى لها وارتاحت نفسها بما كشفتهُ لها من اسرار قلبها لانّها كانت أمةً امينةً تثق بها في كلّ امورها وتعتبرها كأنّها مذ فقدت والدتها وكثيرًا ما كانت تستهدي برأيها وتذعن لمشورتها لاسيّما مدّة سفر ابيها وغيبة يوسف شقيقها

فعزّتها دوروتيا واثبتتهـا على عزمها فقالت لها : « هيّا اسرعي يا عزيزتي ولا تبقي في دارٍ اضحت لكِ شرًّا من المنفى . والراي عندي ان تذهبي الى جبيل وفيها بيت ظئركِ العجوز فانّها تُسرّ بنظركِ وتضيفكِ عندها على الرحب والسعة . امّا اخوك

فانهُ يخفى عليهِ مسيرُك واذا ما أيس بعد مدةٍ من لقياك لا بُدَّ لهُ ان يرحل من بيروت فابأمك الحبر فتعودين الى دارك بعد رحلته »

ومن ثمَّ قامت يهوديت في اوَّل هجعة من الليل وركبت محفتها دون ان تودع اخاها الذي كان خرج الى شوارع المدينة ولعلَّهُ ذهب الى المرسح العمومي ليحضر الصابًا كانت تقوم بها جوقة مصريَّة قدمت بلاد الشام لترتزق بالرقص والغناء وفنون الخلاعة

لكنَّ يهوديت قبل خروجها كتبت ليوسف هذه السطور الوجيزة وسلَّمتها لاحد عبيد الدار: « لا تفتش عني لاني لست اريد ان انظر وجهك وقد كثرتُ باخانك لما في قلبك من الاحتقار والبغض للَّتي كانت شقيقتك »

وكانت يهوديت نسيت كل ما جرى لها بعد كتابتها هذه الرسالة . وغاية ما كانت تتذكر أنها حلمت وبكت في حلمها البكاء الغزير . ثم ارادت ان تعلم ايكون اخوها تقصَّى آثارها ليدركها فامرت حَملة المحفَّة ان يتوقَّفوا عن سيرهم حينًا وتوجَّست ركزًا من سنابك خيل فلم تسمع شيئًا . فاستدلَّت بذلك انَّ اخاها لم يشعر بعدُ بهربها . فاوعزت الى خدمها بمواصلة السير

*

ليس منظر يشبهُ بمحاسنهِ منظر الساحل الشامي الذي يمتدُّ من نهر الكلب الى جُبيل . فانَّ السائر يجري على مقربة من بحر شديد الزرقة تتكسر سورة مياهه الزاخرة على سيفهِ مصاجفةً لرملهِ الناعم تارةً وحينًا لحصاه الصقيلة . وربَّما انتصبت في وجهها الصخور فتساورها الامواج كأنها تريد كسر شوكتها . وعلى يمين السابلة رُبى وآكام تستند اليها جبال عالية كأنها اسوار لحصن منيع لا يقوى على انتهاك حرمتهِ بشر . وعلى منعطف هذه التلال من المناظر البهجة ما تقرُّ لهُ العين لاسيَّما في اوائل الربيع ومماَّ كان يدهش الناظر سابقًا الغابات الكثيفة التي كانت تزين لبنان وتبسط عليهِ ظلالها الوارفة لا يُسمَع فيها غير تغريد الطيور مع صوت فؤوس العملة الفينيقيين الذين كانوا يقطعون من اشجارها ما يرونهُ صالحًا لملاحتهم وتجارتهم البحريَّة

وكان سلوانس وقومهُ يقطعون تلك الانحاء بنشاط وهم يجدون في بهجة الطبيعة ومحاسنها ما ينعش قواهم ويبهج قلوبهم . وكان الليل في تلك الاثناء زحف بخيله ورجلهِ وانشقَّ عمود الصباح . وما بلغوا نهر ادونيس (ابراهيم) حتى بزغت الشمس وارسلت

في وجه يهوديت اشعّتها الاولى فاستبشرت الفتاة بمنظرها وانجلى شيء من كربها فنزلت من محفّتها عند الجسر الممتدّ فوق مياه النهر لتنال نصيباً من الراحة

ولم تكن يهوديت الى ذاك الحين متّعت بصرها بمحاسن لبنان ولم تعرف منهُ الّا ما كان مجاوراً لارباض بيروت. فلمّا استنشقت روائح زهوره العطرة ورأت ما فيه من ضروب المحاسن بسم ثغرها وشعرت براحة لم تعهدها الى ذاك الوقت

واخذت تتجوّل على ضفّة النهر وتنظر الى مصبّه في البحر. وكانت تتعجّب من حمرة مياهه القانئة فسألت سلوانس عن سبب اصطباغ المياه بهذا اللون. فاجابها سلوانس :

« ليس لي علم بحقيقة الامر الّا ان الاهلين يزعمون انّ المياه محمرّة بدم ادونيس. وادونيس هذا إلٰه الجبيليين يُروى عنهُ انهُ خرج يوماً للصيد ومعهُ كلابهُ السلوقيّة فتوقّل في الجبل المشرف على بلاد جُبيل. ولمّا كان في احدى الغابات واذا بخنزير برّي اثارهُ بهِ المرح فهجم عليهِ وضربهُ بنابهِ والقاهُ على الحضيض صريعاً وتركهُ جسماً هامداً. وكانت الزُّهَرة تعشق ادونيس فلم تزل ترثيهِ حتى انّ الألهة كانوا في كل سنة يُحيونهُ مدّةً لمرضاتها. فاذا ما عاد موسم وفاتهِ في الربيع احمرّت مياه نهر ابراهيم حزناً عليهِ »

وكانت يهوديت تسمع لهذه الخرافة مطرقةً واجمة وقلبها متأثر بما اصاب ادونيس من نكبات الدهر. وكأنّها فكرت في حالها وقابلت بين لوعات الزُّهَرة وآلام قلبها لكنّها بعد برهةٍ نفضت عنها غبار هذه التصوُّرات التي اختلقتها الوثنيُّون وتنافي معتقد اليهود

وكان وصول يهوديت الى جبيل رأد الضحى. فلمّا شاهدتها ظئرها « لائيش » طار قلبها فرحاً. فاخذت تقبّلها بكلّ حنان وانعطاف وهي تذرف الدموع شكراً لله على سلامتها. وكانت تذكر الزمن القديم اذ كانت تحملها على ذراعيها وتقوم لديها مقام امّها. فها هي اليوم قد صارت في مقتبل العمر تامّة الشباب كالبانة المائسة قدّاً وحسناً. ثم جعلت تعتذر الى سيدتها اذ لم تجد في بيتها شيئاً من اثاث دور الاغنياء. وما بيتها بالنسبة الى قصر يهوديت الّا خصّ او كوخ حقير

امّا ابنة صموئيل فكان تسلّى همّها وانكشف كربها مذ وطئت دار ظئرها ثم اخذت تطيّب قلب لائيش وتؤكد لها انّها ترضى بمعاشها وتقنع بالقليل قائلةً : لا

يكون لي يا عزيزتي ادنى همّ فاني اقتسم وايّاكِ اشغال البيت فارعى معكِ الخراف في الغابات المجاورة. او أُصلح ما تهيَّأ لابنكِ من الصَّيد ولعلّني اركب قارب زوجك لارافقهُ الى القرى القريبة

الحقُّ يقال انَّ بيت لانيش مع صغرهِ كان في احسن موقع على ربوة منفردة تشبه خميلةً وكان وجهه يطلّ على البحر فيُرى منهُ مرفأ البلدة حيث تتزاحمُ السُّفن الفينيقيَّة وتنساب القوارب الصغرى وكان في جملتها زورق يوليوس النوتي زوج لانيش. وكانت بازاء الدار حديقة جميلة فيها الزهور العطرة مع احرار البقول. وعلى جوانبها سقيفة تعرّش فوقها جفنة الكرم فتلطف بفيئها حرارة الصيف. وفوق السقيفة برج للحمام كانت ترفرف حول الدار ثم تحوّم وتحط في ساحتها لتلتقط ما يلقى لها من الحبوب

وبينما كانت يهوديت تزورُ الدار وتُسرّ برؤيتها اسرعت لانيش وعبدة لها صغيرة تهيئان غرفةً ليهوديت وتفرشان الدار لاستقبالها ثم اعدَّتا لها ديوانًا ووسائد وكلّ الاثاث اللازم لمثلها على قدر ما تسمح لهما الحال

وكان سلوانس قبل ان يخرج الى المدينة ليأجر منزلًا يسكنهُ لهُ وللعبيد انفرد بلانيش واعلمها بسبب هذه الزيارة غير المنتظرة. فاظهرت العجوز خوفها ثمَّ اجالت نظرها حول الدار فرأت زورق زوجها فقالت: لا بأس عليها واذا اقتضى الامر اركبناها السفينة لتفرَّ من جبيل الى قبرس او الى جزيرة ارواد. امَّا انت يا سلوانس فكن على حذر حتى اذا عرفت بخطر يتهدَّدنا انذرتنا بهِ لنفكّر بالوسائل لنجاتها (ستأتي البقيَّة)

مطبوعات شرقية جديدة

Le Caucase, la Perse et la Turquie d'Asie
par le Baron Ernouf, 2de *édit. Paris, Plon*, pp. 367

جبل القاف والعجم وتركية آسيَّة

Les vrais Arabes et leur pays
par Denis de Rivoyre, *idem.* pp. 321

العرب وبلادهم

قد اهدت الينا مكتبة بلون الشهيرة هذين الكتابين ومدارهما على وصف البلاد التي

استافتت اليها حديثًا انظار اهل السياسة بسبب السكك الحديديَّة المنويّ مدّها اعني وادييْ دجلة والفرات. وفيهما اخبار رحَّالتين احسنا وصف ما عاينا. بيد انهُ قد مرَّ على الكاتبين بعض سنوات فلا نرى حاجة الى الافاضة في فحواها. وممَّا يزيدهما نفعًا عدَّة خارطات وتصاوير ترغّب في مطالعتها م. ل

L'Empire byzantin et la Monarchie franque
par A. Gasquet, *Paris, Hachette* pp. XII-484
مملكة الروم والدولة الفرنجيَّة

وهذا ايضًا من الكتب التي مرَّت على نشرها ردحة من الدهر. وغاية مؤلفهِ ان يروي ما دار بين ملوك الروم في القسطنطينيَّة ودولة الفرنج من المخابرات والمداولات السياسيَّة منذ سقوط المملكة الرومانيَّة في المغرب الى اواخر القرن التاسع للمسيح. وهو يبيّن مستندًا الى عدَّة كتابات قديمة انَّ ملوك الفرنج الاوَّلين كانوا يعرفون لملوك الروم حقوق السيادة ويقدّمون لهم الاكرام ويعتبرونهم كخلفاء القياصرة الرومانيين الَّا انَّ هذه شارات الخضوع لم تزل في تناقص بقدر ما كانت تتقلَّص سلطة ملوك القسطنطينية وتتَّسع دولة ملوك فرنسة حتى لم يَعُد هؤلاء يكاتبونهم الَّا باسم الاخ العزيز بعد ان كانوا يخصّونهم باسم الاب. وكان ملوك الروم لا يزالون يقيمون عليهم الحجَّة دون ان يلقوا عندهم أُذنًا صاغية حتى قام كارلوس الكبير ومنحهُ البابا لاون الثالث لقب امبراطور الغرب فاضطرَّ ملوك الروم الى ان يعرفوا لهُ مقامهُ ويتداولوا مع سفرائهِ كمانهُ مثيلهم في الرتبة. وهذا ما يظهر خصوصًا في المعاهدة المبرمة بين الدولتين سنة ٨١٣ للمسيح. وقد اخبر مؤلف الكتاب كلَّ ذلك تفصيلًا. ونأخذ عليه انهُ يتجاوز حدود الانصاف في امور كثيرة يحكم عنها جُزافًا لاسيَّما انَّهُ قد اتَّبع في رواياتهِ الكردينال العظيم والكاتب البليغ هرغنروتر وهو يقرّ بسموّ مداركهِ وسعة علمهِ واعتدال مشربهِ ف. ب

مكتبة الاسكندريَّة — كتب الخوري المارونيّ الفاضل بولس عويس فصلًا مفيدًا في تاريخ هذه المكتبة الشهيرة وحريقها. لكنَّهُ سها عن ذكر بعض الشهادات التي اوردناها في المشرق (٢ : ٦٧٠) وهي توضح الامر باجلى بيان وتؤيد قولهُ باثبت برهان

شذرات

عقل الحيوان — ما كنَّا لنظن انَّ صاحب الهلال ممَّن يرتأون راي بعض الملحدين فينسبون العقل للحيوان. وعليه قد اخذنا العجب لمَّا قرأنا في عدده الاخير (١ نيسان ص ٢٠٧) : حيث يجيب على سؤال لاحد قرَّائه « قد ثبت بالاختبار المتواتر انَّ بعض الحيوانات تعمل اعمالًا تدلُّ على اعمال الفكرة والتعقُّل كما ذكرتم عن القردة والكلاب وغيرها ». وقد سبق المشرق ووصف مثل هذه الاعمال العجيبة التي ربَّما فاقت بعض اعمال الانسان. ولكن بيّن بالبراهين الدامغة انَّ مثل هذه الاعمال تدلُّ امَّا على غريزة وامَّا على نباهة طبيعيَّة وشتَّان بينها وبين العقل (راجع مقالة حضرة الاب ل. رتزفال في المشرق ٤ : ١١٠٥). ومن جهة اخرى نرى المقتطف في احد اعداده الاخيرة يثبت « الحياة للجمد ». فيا لله أهذه الترهات من العلم. وكيف لا يرى هؤلاء الكتبة انَّهم يخلطون بين ممالك الطبيعة ويبلبلون نظام الكون العجيب الذي وضعهُ الخالق. فان كان الحيوان عاقلًا والجماد حيًّا صار الانسان والجماد على سواء والعوذ بالله من كلّ هذه السفاسف التي لا يرضى بها عقل الصبيان فضلًا عن قوم عقلاء لا يزالون ينادون بالعلم وهم ينقضون اساسهُ

ل. ش

جيدور وايطور — قال حضرة الاب اللغوي لامنس اليسوعي: « لم يحكم العلماء حكمًا فصلًا في التوحيد بين « جيدور » و « وايطوريَّة » لان معاملة « جيدور » بلاد سهل. امَّا ايطوريَّة فعلى قول حضرة الاب انستاس معناها الجبليُّون هذا فضلًا عمَّا بين الكلمتين من التبايُن في اللفظ » اه. قلنا : كون العلماء لم يحكموا حكمًا فصلًا في ذلك فليس ببرهان سديد فلعلهم يحكمون بعد ذلك. امَّا لانَّ « جيدور » بلاد سهل و « ايطورية » معناها الجبليون فنحن لا ننكر ذلك الَّا اننا نقول ان الايطوريين لمَّا حلُّوا في تلك الاصقاع تسمَّت باسمهم بقطع النظر عن هيئة البلاد كما قد اتفق تسمية كثير من البلاد باسماء محتليها او لاسباب لم تكن نفس الاسباب التي دعت البلاد الاولى ان تسمَّى بها. من ذلك مثلًا « بابليون » فانها اسم ديار مصر او اسم الفسطاط ومع ذلك فانك اذا بحثت عن سبب تسمية بابل بذلك لا تجدهُ في بابليون. وفي اميركة مدينة تسمَّى « بغداد » وليس هناك ما سبَّب هذه

التسمية. وكثيرٌ من البلاد قد تسمَّت باسم الغالين مع بعض تصحيف للتفريق بين بلاد وبلادٍ احتلُّوها وما سبب هذه التسمية الّا تولهم فيها ليس الّا. من ذلك: La Gaule, Le pays de Galles, la Galacie, la Galatie وكذلك نقول في «جيدور» بانها تصحيف «ايطور» او ايطورية اشارة الى القوم الذي احتلَّها لا اشارة الى حالة الارض وهيئتها كما قد يذهب اليه الوهم. واماَّ التباُين الذي يُرى بين اللفظتين فهذا ليس ببعيد عند من يتتبَّع انتقال الألفاظ وناموس تصحيفها بلسان قوم وقوم. فلو قلنا لواحدٍ يجهل اللغات الاجنبيَّة ان «جاك Jacques» هي تصحيف «يعقوب» لضحك من هذا القول مع ان الحقيقة راهنة في ذلك. وكذلك القول بان «خُسُوس» (وهكذا يلفظ الاسبانيون كلمة Jésus) هي نفس لفظة «يسوع» لتعجَّب ايضاً. لا بل وقد وقع مثل ذلك في اللغة العربيَّة اي قد يقع اكثر من «إبدال واحدٍ» في «اللفظة الواحدة من ذلك تكافش وتقافس وشحاح وسخاخ (المزهر ١: ٢٦٢). ونكث العهد ونقضهُ. والسَّرَوْعَة والزَّرَوْحَة. واحمق من شَرَنْبَث اوجَرَنْبَذ (اللغويين) وهلمَّ جرًّا. وعليه فلا بُعد بين «جيدور» و «ايطور» من بعد ان بيناَّ وجه هذا الانتقال في كلامنا الاوَّل. وللقارئ ان يتبع بعد ذلك الراي الذي يستصوبهُ والسلام الاب انستاس

قياس حرارة الشمس قد توصَّل احد علماء الاميركان اسمهُ ولسون (W.F. Wilson) الى قياس حرارة الشمس في جرمها الاصليّ فاثبت انها تبلغ ٦٨٦٣ درجةً من ميزان السنتيغراد

بلاد البرتقال تُصدر بلاد كاليفورنية في كل سنة ٢٠,٠٠٠,٠٠٠ من البرتقال ينقلها ١٥٠٠٠ قطار من قُطر السكَّة الحديديَّة. وفي كل سنة يُقام في مدينة «لوس انجلوس» سوق مختصَّة بالبرتقال يُعرض فيها هذا الثمر على هيئات غريبة على شكل قصور واهرام وكعوب وحيوانات يأتي الناس من كل جهات اميركة لمشاهدتها

كوخ وميكروب السلّ البقري كان انكر الدكتور كوخ انَّ ميكروب السلّ البقري يُعدي البشر وكان الاطبَّاء الفرنسويون يرتأُون خلاف ذلك. وقد رجَّح المؤتمر الطبيّ الدولي المنعقد في برلين راي الفرنسويين استناداً الى بعض حوادث مقرَّرة اثبتها الدكتوران نوكارد (Nocard) وارلوين (Arloing)

مرصد اليسوعيين في الفيلبين قد أطلعت حكومة الولايات المتحدة على كتاب جليل وضعهُ الاب يوسف الغه (J. Algué) مدير المرصد الفلكي في جزائر الفيلبين عن الآثار الجوّية فجازته بمبلغ ثلثمائة الف دولار ونشرت الكتاب على حسابها

اسئلة واجوبة

س سأل جناب الاديب ن. م. شملاني ايقع تحت الحرم البابويّ الكاثوليك الشرقيّون اذا طالعوا الكتب المحرَّمة

الكتب المحرَّمة

ج لا يقع الشرقيّون تحت الحرم البابوي ألّا اذا ذكرهم المجمع الروماني ذكرًا خصوصيًا وانَّما يخطئون في الغالب خطأً مميتًا اذ يعرّضون بانفسهم لخطر الكفر او فساد الآداب. وربَّما وقعوا تحت حرم بطاركتهم

س وسأل الطالب النجيب ن. هراوي من هي هذه السيدة زبيدة التي تنسب اليها الآثار في نواحي لبنان

السيدة زبيدة وآثارها

ج قد اجاب على هذا السؤال حضرة الاب س. رنزفال في مقالته عن زينب (الزبَّاء) ملكة تدمر. في السنة الاولى للمشرق. فعلى السائل بالمراجعة

س وسأل حضرة الاب انستاس الكرملي الاب هنري لامنس: كيف امكنهُ ان يقول انَّ كتبة العرب يريدون بالانباط ذوي العنصر الآراميّ ونرى هذا الاسم مطلقًا على قبائل ليست بآراميّة بل اصلها عربي صرف

الانباط

ج نجيب انَّ حضرة الاب انستاس مصيبٌ في قولهِ عن اطلاق النبطيّ على الآراميين اجمالًا. لكنَّ كتبة العرب ربَّما حصروا هذا الاسم ودلُّوا بهِ على النبط الذين اصلهم نبطيّ لاسيَّما عند كلامهم عن زمن الجاهليَّة او عن العنصر الذي كان خارجًا عن جزيرة العرب وهذا ما اردناه كما يتَّضح من قرينة الكلام واثبتهُ العلّامة نلدكي مثلنا

ه. ل